سلسلة تصحيح المفاهيم | ١ |

فلسفة التنوير
بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي

الأستاذ الدكتور

محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية

دار العلوم ـ جامعة القاهرة

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

فلسفة التنوير
بين المشروع الإسلامي
والمشروع التغريبي

الكتـــــــــاب : فلسفة التنوير بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي

المؤلـــــــــف :أ.د /محمد السيد الجليند

تاريـــخ النشــــر : ١٩٩٩م

الناشـــــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبده غريب

شركة مساهمة مصرية

المطابـــــــــع : مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية (C1)

ت: ٠١٥/٣٦٢٧٢٧

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة ٦

ف : ٢٤٧٤٠٣٨ ـ ت : ٢٤٦٢٥٦٢

التوزيـــــع : ١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢

رقـم الإيـداع : ٩٩/٢٤٦٦

الترقيم الدولـي : I S B N

977-303-090-3


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه قراءة تحليلية موجزة لمصطلح " التنوير" وظروف نشأته وملابساته التاريخية، وانتقاله إلى عالمنا العربى بظروفه وملابساته التى صاحبت نشأته فى أوربا، قصدت بهذه القراءة تصحيح مفهوم المصطلح فى ذهن الشباب حتى يكون على بينة من الأمر، خاصة بعد أن امتلأت الساحة الثقافية بهذه المصطلحات المدخولة دون تحرير لمعناها وتخليصه من الشوائب التى علقت به، فإن هذه المصطلحات (علمانية ــ تنوير ــ تقدمية) من الكلمات المجملة فى معناها ، والتى التبس فيها الحق بالباطل، ففى رفضها رفض لما فيها من الحق، وفى قبولها قبول لما فيها من الباطل ومن هنا لزم ضرورة توضيح هذه المصطلحات والتنبيه على ما فيها من زيف وباطل يجب رفضه والتحذير منه، وما تشتمل عليه من حق يجب قبوله والدعوة إليه.

ولخطورة هذه القضية أتوجه بالنداء إلى المؤسسات الثقافية فى بلدنا (مصر المحروسة) التى من شأنها الحرص على تربية الشباب على كل ما هو صحيح من الفكر، وتحذيره من كل ما هو زيف وباطل من القول، ولا يظنن أحد أن فى هذه الدعوة حكراً على رأى أو قيداً على فكرة، فإن من شأن المؤسسات التابعة للدولة ألا تخضع لأهواء القائمين على شئونها، وألا تأخذ طابع لونهم الثقافى

أو السياسي، وإنما تتبنى الثوابت من الآراء والركائز الأساسية للنهوض بمصر، وتترك الآراء الخاصة لأصحابها وتنأى بهذه المؤسسات الوطنية عن التلون المذهبي أو الثقافي.

أما أن تكون هذه المؤسسات أبواق دعاية لآراء القائمين عليها أو تتلون بلونهم العقائدي والفكري فهذا عبث بمصائر الأمة وضياع لحاضرها؛ إن هذا لون من السياسة قديم عبر عنه فرعون في ندائه لقومه حين قال لهم" ما أريكم إلا ما أرى" ولذلك فقد لفظه التاريخ.

إنني أتوجه إلى مؤسساتنا الثقافية بضرورة تخليصها من التبعية المطلقة لمذهب القائمين عليها أو التلون بلونهم الفكري والعقائدي.

كما أناشد القائمين على هذه المؤسسات بضرورة تحرير المصطلحات المترجمة وتخليصها من الشوائب والملوثات العقائدية التي صاحبتها في نشأتها والتنبيه إليها والتحذير منها، وما أكثر الملوثات الثقافية والعقائدية التي صاحبت نشأة مصطلح " التنوير" في الغرب ثم انتقلت معه إلى بلادنا دون تمحيص أو مراجعة للنفس، إن القائمين على هذه المؤسسات قد ائتمنهم الشعب على حراسة مقدساته من العبث بها أو الإساءة إليها، وهم أمناء على مستقبل البلاد ثقافيا وفكريا وعقائديا ومن منطلق هذه الأمانة لا يجوز لهم أن ينشروا ما يسيء إلى عقيدة الأمة أو ينال من مقدساتها تحت مسميات حرية الرأي أو التعبير، ويتركوا ذلك للقطاع الخاص وإلا فقد خانوا الأمانة التي تحملوها ونقضوا العهد الذي أخذوه على أنفسهم أمام الأمة، إن

الملوثات الثقافية التى صاحبت " التنوير" فى الغرب قد وجدت فى بلادنا من تبناها ودعا إليها. فوجدنا من ينادى برفض الدين كأساس للنهضة، ومن يصرح فى كتبه بوجوب التخلص من الإيمان بالغيبيات بدعوى أنها خرافة، وإذا جاز لأصحاب هذه الأفكار أن ينشروها فالأولى بهم أن يكون مجال النشر لها هو المطابع الخاصة وليست مؤسسات الدولة التى تمارس نشاطها بأموال الأمة.

إن الأموال التى تنفق على طباعة الكتب التى تسىء إلى عقيدة الأمة خيانة للأمانة وعبث بمستقبل الشباب وإن ما يجرى الآن فى الساحة الثقافية جد خطير خطير.

وإن استعمال هذه المصطلحات دون تمحيص لها وتوضيح لمعناها المدخول فيه تضليل للعقول، لأن فى قبولها قبول لما فيها من الباطل الذى ترفضه عقيدتنا، وفى رفضها رفض لما فيها من الحق الذى ننشده لأمتنا ونسعى إليه، والباطل الواضح لا لبس فيه.وكذلك الحق الواضح لا لبس فيه، أما المشكلة الخطيرة فتكمن فى المصطلح الذى يختلط فيه الحق بالباطل دون بيان وتوضيح.

ويقينى أن ما أقدمه فى هذه الورقات هو جهد المقل. لكن حسبى أن أنبه هنا إلى خطورة هذه المشكلة، وأدعو القارئ إلى نظرة نقدية فاحصة لما تقدمه المطابع يومياً تحت مسمى " التنوير" وأخواتها.

والله من وراء القصد وهو حسبى،،،

د. محمد السيد الجليند

المصطلح وظروف نشأته

من المفيد أن نوضح لأنفسنا ولغيرنا مفهوم مصطلح التنوير، كيف ظهر تاريخياً، وما هى الظروف الثقافية التى أفرزته، وكيف انتقل إلى العالم العربى وهو محمل بغبار معركة وقعت على غير أرضنا، وتحت ظروف ثقافية نشأت وعاشت فى غير حضارتنا، وفى ظل دين غير ديننا؟

إن توضيح هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية حتى يتعرف الشباب على حقيقة هذا المصطلح وظروف نشأته التاريخية. وليكون على بينة من الأمر، فإن كثيراً من المصطلحات التى تتردد على الألسنة وتسود بها الصحف والمجلات مصطلحات مدخولة، ومضللة يشوبها زيف وتمويه أكثر مما فيها من الحق المقصود أو البيان للحق. ولأن الساحة الثقافية أشبه بالميدان الخالى إلا من أصحاب هذه النزعات المدخولة، وهذه المصطلحات المضللة، فكثر استعمال هذه المصطلحات فى الكتابات والندوات الثقافية دون استيضاح من أحد لمعناها ومدلولها، ودون أن يتساءل عن ظروف نشأتها وملابساتها الثقافية والدينية. مما يخشى معه أن يستقر فى أذهان الشباب، هذه المصطلحات المدخولة أو أن ما يطرح عليهم من قضايا فكرية وثقافية تحت مسميات التنوير أو التقدمية أو ... أو

... هى الحق الذى لا مرية فيه أو أن مستقبل الوطن مرهون بالأخذ بها، كما يدندن حول ذلك بعض أصحاب الأقلام ... لا ... إن القضية تحتاج إلى توضيح وطرح تساؤلات عديدة، بل تحتاج إلى مراجعة للنفس من أصحاب هذه النزعات، خاصة أن وقتا كافيا قد مضى على ظهور هذه النزعة، وقد تبين خلاله الخيط الأبيض من الخيط الأسود لكل ذى بصر وبصيرة، وأصبح واضحا ماذا يريد الغرب منا، وماذا يريد حماة شعار التنوير بالمفهوم التغريبى.

إن مصطلح التنوير ـ كغيره من المصطلحات العلمانية ـ وفد إلينا من الغرب ضمن مجموع المصطلحات التى غزت ثقافتنا المعاصرة خلال حركة الاتصال الحديثة بين مصر والعالم الغربى ـ خاصة فرنسا ـ خلال القرنين الأخيرين.

ولقد نشأ هذا المصطلح فى ظروف تاريخية عاشتها دول أوروبا شرقا وغربا، كانت ثقافة الشعوب فى أوروبا خلالها قاصرة على ما تمليه عليهم سدنة الكنيسة ورجالها، وكانت السيطرة الثقافية واللاهوتية وتفسير الظواهر الطبيعية خاضعة لرجال اللاهوت الكنسى، لا يجوز مخالفتها، باعتبار ذلك وحيا لا تجوز مخالفته.

وحتى لا يساء فهمنا نود أن نشير هنا إلى أنه لا ضير من استعمال المصطلحات الوافدة من هنا أو هناك، ولكن ذلك يستلزم توضيح معناها للشباب: ماذا يراد بها عند أهلها، وفى البيئة التى تولد

فيها هذا المصطلح أو ذاك، ما مفهوم المصطلح عندهم، وماذا نريد به عندنا، وهل الظروف والملابسات التى أفرزت هذا المصطلح موجودة فى بيئتنا أم لا؟ وهذا أمر لابد منه عند استعمال المصطلحات الوافدة؛ لأن معظمها فيه لبس وتمويه لابد من بيانه للشباب حتى إذا قبلوا المصطلح أو رفضوه يكون موقفهم مؤسساً على اليقين فى القبول أو الرفض. وكثيراً ما تثور المشكلات بين المدارس الفكرية، بسبب عدم توضيح المفاهيم ولا بيان لمدلول المصطلحات، فقد يكون المصطلح مشتملاً على حق وباطل، بسبب ظروف نشأته فيكون قبوله على الإطلاق قبولاً لما فيه من الباطل، ويكون رفضه على الإطلاق رفضاً لما فيه من الحق، وفى كلتا الحالتين افتراء على المنهج العلمى السليم.

ومن المعروف تاريخياً أن موقف الكنيسة وآراء رجالها كانت فى العصور الوسطى تمثل الجهل والتخلف والخرافة، فلقد طلبوا من المسيحيين الإيمان والإذعان لآرائهم فى تفسير الظواهر الكونية مدعين أن الدين (الكنيسة) يختص بتفسير هذه الظاهر، وإن الخروج عليها كفر وإلحاد، ويكون جزاؤه الطرد من رحمة الكنيسة.

ومن المفيد أن ننبه هنا إلى أن موقف الأديان من الكون وظواهره هو الإيمان بما هو موجود على ما هو عليه فى الوجود، دون أن يفرض الدين تفسيراً معيناً لهذه الظاهرة أو تلك، تاركاً ذلك

كله لمنطق العلم وما يصل إليه العقل من اكتشافات وعلاقات بين الأسباب والظواهر، دافعاً للعقل أن يعمل ويكتشف القوانين ويدرك العلاقات، جاعلاً الكون كله خاضعاً لسلطان العقل بحثاً واكتشافاً وتسخيراً وتوظيفاً. ومن هنا كان الكون كله آية دالة على خالقه، وكان أكثر العلماء اكتشافاً لقوانين الكون وأكثرهم إدراكاً للعلاقات أشدهم خشية لخالق هذا الكون. هذه نقطة تحتاج إلى بسط وتفصيل أحسب أن له مجالاً آخر، ولكن أردنا أن ننبه هنا إلى السقوط الذى وقعت فيه الكنيسة بفرض آرائها على العلماء ودعوى احتكارها تفسير الظواهر الكونية، ووجوب الخضوع لتفسيراتها وقبول آرائها فى تفسيرهم للظواهر الطبيعية، وترتب على ذلك ميلاد حركة التنوير العلمى الرافضة للكنيسة ولآرائها، معلنة أن ما يدعيه رجال الكنيسة باطل لاحق فيه، جهل لا يسنده علم، خرافة لا يقبلها العقل.

ولما كان رجال الكنيسة هم الممثلون للدين. فقد فتش العلماء فيما يطالبهم رجال الكنيسة الإيمان به والاعتقاد بصحته، فوجدوا أن هذه الآراء، وتلك التفسيرات، خرافة لايقرها العقل، وجهل لا يقبله العلم، وظلام وتخلف لا يثبت أمام النقد ومنطق العلم، فأعلنوا ثورتهم على هذه الآراء وتلك الخرافات التى ارتبطت فى أذهانهم بالكنيسة ورجالها.

وبدأت قصة هذا الصراع المرير بين الكنيسة والعلماء منذ أيام كوبرنيق (١٤٧٣ ــ ١٥٤٣م)، الذى أعلن عن آرائه فى الطبيعيات والفلك ومركز الكون، وكلها على نقيض مايدعيه رجال الكنيسة، وانسحب ذلك الموقف بكامله على الدين بمفهومه العام.

لم ينتبه العلماء إلى ضرورة التفرقة بين رأى رجال الكنيسة والدين الصحيح فى مفهومه العام. وصار الدين عندهم ــ كما عرفوه من رجال الكنيسة ــ تجسيداً للتخلف والجهل والخرافة. وأصبح رجل الدين رمزاً لكل هذه المعانى. فهو داعية للجهل. محارب للعقل. رافض للعلم، ولا شك عندى ــ أن هذه الكوكبة من العلماء التى عاشت هذه المعركة كان ينقصها العلم بالدين الصحيح، الذى نزل على عيسى عليه السلام، فضلاً عن جهلهم التام بالإسلام واحتضانه للعلم، وتكريمه للعلماء، ولا شك عندى أيضاً أن رجال الكنيسة الذين أعلنوا هذه الحرب التاريخية على العلم والعلماء قد أساءوا إلى المسيحية، وأفسدوا بموقفهم هذا حركة التاريخ المعاصر. فلا انتصروا لدينهم، ولا حققوا النصر على عدوهم، بل كانوا بموقفهم هذا الباب الطبيعى الذى فتح على مصراعيه لدعاة الإلحاد والثورة على الكنيسة والدين معاً، حيث صوروا الموقف على أنه صراع بين الدين والعلم، وليس بين رجال الكنيسة والعلماء بين العقل والخرافة، بين النور والظلام بين التقدم والتخلف، وكان مفهوم التنوير يعنى

التحصن بمنطق العلم والعقلانية، ضد هذا الديـن ورجالـه، الذيـن يمثلون الجهل والخرافة، فكان لابد أن ينتصر العلـم فـى مواجهـة الجهل، وينتصر العقل فى مواجهة الخرافة، والتقـدم فـى مواجهـة التخلف.

وكان مصطلح التنوير هو المعبر عن نتيجة هذه المعركة التـى حسمها التاريخ والواقع لصالح العلم والعقل والنور ضـد الكنيسـة وآرائها، ولقد صورت المعركة كلها على أنها صراع بيـن الديـن، بمعناه العام، وكل معانى التنوير التى هى العقلانية والتقدم، وانتقلـت المعركة بكل ملابساتها وظروفها إلى عالمنا العربى بدون أن يفطـن دعاة التنوير فى عالمنا العربى إلى أن الإسلام ليس هو الكنيسـة، ولا عالمنا العربى هو أوروبا، ولا الحضارة الإسلامية هـى الحضـارة الأوروبية فى عصورها المظلمة، فليس رجل الدين عندنـا رافضـا للعلم، ولا محاربا للعقل.

وأخذ دعاة التنوير عندنا يصورون المعركة فى بلادنا على أنها صراع بين الإسلام والعلم، بين الدين والعقل، بين ضرورة التخلـص من الماضى، والنهوض بالمستقبل، وكـان النمـوذج الغربـى فـى نظرهم هو المثل والقدوة التى ينبغى أن نحذو حذوها. ونسـير فـى ركابها حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلناه معهم.

وأصبحت الثنائية التناقضية بين الدين والعلم عنونـــاً لحركـــة التنوير، وملازمة لها فى بلادنا، فكما رفض العلمـــاء فـــى أوروبـــا الكنيسة، وأعلنوا الحرب عليها، دليلاً على التنوير أخذ دعاة التنويـــر عندما بنفس المبدأ، فأعلنوا الحرب على الإسلام ورجاله، لكى يعلنـــوا عن أنفسهم أنهم تنويريون ودعاة التنوير، وكما أعلـــن العلمـــاء فـــى الغرب أن الدين ـــ الكنيسة ـــ خرافة، ورجاله رموز للجـــهل، أخـــذ دعاة التنوير فى بلادنا يلصقون نفس التهم بالإسلام ورجالـــه، ولـــو اتصف هؤلاء الدعاة إلى التنوير لبدأوا دعوتهم من حيث بدأ الإســـلام، الذى يجعل العلم ديناً وفريضة، ويجعل حاكم العقل فى عالم الشـــهادة ميزاناً لا يخطئ، ولو اتصفوا لفرقوا بين الإسلام والكنيســـة، وبيـــن الشرق والغرب.

الدين والحضارة

لقد أصبح من المقرر عقلاً، الذى لا يحتاج إلى دليل أن تـــاريخ الحضارة الإنسانية هو تاريخ للتدين البشرى ومعتقداته، حيث يعكـــس كل شعب تدينه ومعتقداته فى آثاره وتراثه الحضارى، شعراً كـــان أو نثراً، أسطورة كانت أو صورة مجسمة فى شكل تمثال أو نحـــت أو حكمة شعبية، هذه قضية لا تخلو منها أمة من الأمم، ولا ينفرد بـــها تاريخ شعب دون شعب آخر، ومن هنا فإنه يمكن لنا أن نقـــول : إن تاريخ الحضارات الإنسانية هو تاريخ تدينها أيا كان هذا التدين ونـــوع

هذا الاعتقاد، رقياً أو انحطاطاً، مقبولاً فى منطق العقل أو مرذولاً، نزل به كتاب وبشر به وحى أو وضعه البشر، وأوصى به الحكماء، فلم نجد فى تاريخ البشرية من لدن آدم إلى الآن، أمة بلا دين ولا شعباً بلا عقيدة، وما كانت الأساطير الشعبية فى كثير من البلاد إلا تجسيداً لغذائها الروحى، الذى يسد حاجتها إلى الاعتقاد، ويعبر عن حاجتها إلى التدين.

قد توجد أمم كثيرة بلا فنون، وبلا مسارح، وبلا علوم، وبلا آثار، لكن يستحيل أن نجد على ظهر الأرض أمة بلا اعتقاد وبلا مظهر يعبر عن تدينها، فقد نجد أمة لا تملك الأهرامات، ولا أبا الهول، كما تملكه مصر وقد نجد أمة ليس لديها سور عظيم مثل سور الصين . وقد نجد أمة بلا فلسفة ولا مسارح ولا فنون ، كما هو الشأن فى اليونان، ولكنك تجد أمم أهل الأرض كلها تشترك فى حاجتها إلى الاعتقاد والتدين، ثم تختلف وسائلها فى التعبير عن هذه الاعتقادات، وعن تلك الحاجة الغريزية الفطرية، فنجد أمما جسدت عقائدها فى التوجه إلى المحسوسات التى لمست فيها نوعا من النفع والقدرة الخارقة، وأمما أخرى نزل عليها الوحى بتصويب الاعتقاد وتوجيهه نحو المنهج السماوى السليم، فالأمم التى انتشرت معالم الوحى فيها تحاول أن تبحث لنفسها عن دين تعتقده، وقد تجد فى بعض النماذج البشرية المثل والقدوة ومؤهلات الاعتقاد، فتضفى

عليها صفة الألوهية أو صفة الأنبياء أو الحكماء، ولعل في نشأة الأديان الوضعية ما يكفي للدلالة على حاجة الإنسان الغريزية إلى التدين والاعتقاد. وليس بوذا ولا زرادشت ولا حكماء الصين القدامى إلا نماذج بشرية أضفى عليها أهلها صفة القداسة إشباعاً لحاجتهم إلى الاعتقاد. هذه قضية نكاد تجزم أنه لم تخل منها أمة من الأمم.

ولهذا لا نجد أمة بلا معبد ولا محراب، أيا كان اسم هذا المعبد كنيسة أو مسجداً أو بيعاً أو أو هذه حقيقة أكدها تاريخ الحضارات الإنسانية، ذلك أنه في داخل كل منا تعطش ذاتي لا يرويه إلا الاعتقاد. صحيحاً كان هذا الاعتقاد أو فاسداً، وفي طبع كل منا نهم يشبه نهم الجائع إلى الطعام, ولعل هذه الحاجة الغريزية إلى التدين هي التي جعلت الفيلسوف الفرنسي " رينان" يقول : إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ويتلاشى من أمام أعيننا، وأن نبطل حرية العقل.. لكن يستحيل أن ينمحي التدين من نفوسنا، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أصحابه أن يحصروا حاجة الإنسان في المطالب المادية الدنيئة للحياة الأرضية، ولقد جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: إن الغريزة الدينية حاجة مشتركة بين جميع الأجناس البشرية حتى أكثرها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية.

ونحن نؤكد من جانبنا أنه من أجل إشباع هذه الحاجة الفطرية وتصحيح مسارها التاريخى كان تتابع الأنبياء والمرسلين إلى أمم أهل الأرض قال تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤]، وقال سبحانه:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

إن تقرير هذه الحقيقة وتأكيدها يوضح أمرا مهما فى الطبيعة الإنسانية قرره الواقع، وأكده التاريخ هو أن التدين أصيل فى النفس الإنسانية، والإلحاد أمر عارض عليه، الاعتقاد هو الأصل، والإلحاد شذوذ، الإيمان هو منطق الفطرة، وهو صمام الأمان للنفس البشرية، والإلحاد طارئ لمرض عارض. وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف: " خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين"(١) والحديث الصحيح: " كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدع"(٢)، أى نقض والرسل صلوات الله وسلامه عليهم لم يأتوا بدعوتهم إلى البشرية ليؤسسوا أصل الاعتقاد فى النفس البشرية.. لا ولم يكن هذا غرضهم، ولا هدفا لهم. وإنما جاءوا ليصححوا الاعتقاد المنحرف، ويصوبوا

(١)رواه مسلم فى صحيحه ٤/٢١٩٧؛ ابن حنبل ٤/١٦٢.

(٢) رواه البخارى ٢/ ٩٤-٩٥ (كتاب الجنائز باب إذا أسلم الصبى.) والحديث فى مسلم؛ والترمذى وابو داود وابن حنبل.

مساره المعوج وتعليم شعائره، والإعلان عن طقوسه وشعبه. ولذلك فإن القرآن الكريم سمى وظيفة الأنبياء تذكيرا وتذكرة، وسماهم مذكرين. قال تعالى ﴿فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ [الغاشية :٢١]، وقال تعالى: ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾،[الشورى : ٤٨] وسمى القرآن نفسه تذكرة فقال سبحانه عن القرآن: ﴿إن هذه تذكرة﴾، [الإنسان : ٢٩] نعم إن الرسل لم يؤسسوا الاعتقاد فى نفوس البشر. وإنما صححوه، كشفوا عنه الصدأ، وأزالوا عنه ظلمات الشك ورين الشبهات، وحديث القرآن عن هذه القضية جاء كله فى صيغة التذكير والتذكر لينبهنا إلى أن هذه قضية مركوزة فى نفوس بنى آدم. قد يعلوها الصدأ أحيانا، قد يخبو نورها أحيانا، لكنها لا تموت ولا تتلاشى أبدا.

التدين ليس مرحلة تاريخية:

بعد تأكيدنا على أهمية الحقيقتين السابقتين نرى ضرورة مراجعة تفسير علماء الاجتماع لظاهرة التدين، أو كما يطلقون عليها ــ خطأ ــ ظاهرة الدين، ويعتبرون الدين مرحلة تاريخية انتهت بدخول العالم عصر العلم.

إن مؤسسى علم الاجتماع الحديث يقسمون تاريخ الإنسان إلى مراحل ثلاث: أولها مرحلة الدين ــ ثم مرحلة العقل والتفلسف ــ ثم مرحلة العلم. وكل مرحلة تمثل فى نظرة علماء الاجتماع مقدمة

للمرحلة التى تليها. ولابد أن تختفى هذه المرحلة السابقة بظهور المرحلة التالية لها، وهذه المراحل الثلاث تسير فى تاريخ الإنسان فى خط تطورى، ومرحلة الدين أو التفسير الدينى هو أول هذه المراحل، إنه يمثل مرحلة الطفولة العقلية فى عمر البشرية. مرحلة التفسير الغيبى للظواهر، ولابد أن تختفى هذه المرحلة بمجرد أن يحل التفسير العقلى الفلسفى للظواهر، كما أن التفسير العقلى الفلسفى ينبغى أن يختفى بدوره ليحل محله التفسير العلمى التجريبى، وهذه المراحل الثلاث تمثل موقف الإنسان من ظواهر الطبيعة وتفسيرها، فالتفسير الدينى أولا، ثم التفسير العقلى الفلسفى، ثم التفسير العلمى. وقد أصبح هذا التقسيم الثلاثى للتاريخ أشبه بالمسلمة التى قبلها العلماء على أنها حقائق لا تحتاج إلى نقاش. وقد انتقل هذا التفسير بدوره إلى عالمنا العربى، وبات منهجا من مناهج الدرس الأكاديمى فى أقسام الاجتماع بالجامعات العربية، ويلقن للطلاب على أنه حقائق تاريخية تكاد تصل فى وثاقتها القضايا الرياضية. وأخذ صفة العموم والشمول لكل تاريخ الإنسان فى أى مكان وحضارة. وهذه القضية من وجهة نظرنا تحتاج إلى مراجعة دقيقة، وإعادة نظر فى أسبابها وفلسفتها ونتائجها.

أولا: إن هذه المستويات الثلاثة أو التقسيم الثلاثى لعلاقة الإنسان بالكون وتفسيره نرى أنها لا تسير بالضرورة فى حياة الإنسان

المؤهل لهذا الموقف ــ فى هذا الخط التناقضى ــ كما صوره علماء الاجتماع ــ بل الأولى من ذلك أن يقال إنها تسير فى خط متجاور أو متواز. فهى متزامنة فى حياة الفرد، وبالتالى هى متزامنة فى حياة الأمم، والشخصية السوية المتكاملة نجدها مؤمنة بالمستويات الثلاثة، وأنها متزامنة متجاورة متعاونة فى وقت واحد وليست متعاقبة أو متناقضة ينفى لاحقها سابقها، كما صورها علماء الاحتماع، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاتيته بشكل تكاملى إلا إذا جمع فى موقفه من الظواهر بين هذه المستويات الثلاثة للتفسير التى تمثل فى شخصية الإنسان الجانب الحسى المادى، والجانب العقلى العلمى، والجانب الروحى، فإنه يدرك الظواهر المحسوسة بالأدوات الإدراكية الحسية، ثم يفسر العلاقات السببية ــ بين نوع الظاهرة وأسبابها بعمله العقلى، ثم يتساءل عن القوة الكامنة فى الأسباب التى أنتجت هذه الظاهرة. من الذى أودع هذه الأسباب قوة التأثير فى المسببات، ومن الذى حفظ لها قوة التأثير حتى أخذت شكل الثبات والاطراد، بحيث كلما تكررت الأسباب تكرر معها وقوع الظاهرة وتفسير العلاقة بين السبب والمسبب؟ هو عمل العقل ومنطق العلم.

ولكن البحث عما وراء السبب الظاهرى وعمن أودعــه قــوة التأثير فى المسببات هو غذاء الروح لتصل من خلالــه إلــى إثبــات مسبب الأسباب، الذى غاب عنه أصحاب الفكر المادى، والذين توقفوا عند مجرد ملاحظة الظاهرة وارتباطها بأسبابها دون أن يتساءلوا عما وراء ذلك هم الذين تحدث عنهم القرآن الكريم بقوله ﴿يعلمون ظــاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[الروم:٧] ومن هنا نــرى أن تفسير الظواهر يمر بمستويات فكرية ذهنية متزامنة فــى الشــخص الواحد، وليست مراحل زمنية متعاقبة، ولا متنافيــة، ولا متناقضــة، وبالتالى فإن ملاحظاتها على مستوى الشخص الواحــد، ثــم علــى مستوى الأمم والشعوب يجعل تفسير دور كايم لهذه المراحل تفســيرا خاطئا. فهى ليست مراحل تاريخية تنتــهى إحداهــا ليحــل مكانــها الأخرى، ولكنها مستويات متكاملة ومتزامنــة فــى حيــاة الأفــراد والشعوب على سواء.

ولو جاز تفسير هذه المستويات على أنها مراحل متعاقبة لكــان أولى بها أن يكون ترتيبها على نحو معاكس تماما لما قال به علمــاء الاجتماع، ذلك أن ارتباط الإنسان بالواقع الحسى ومــا تمليــه عليــه الوقائع التجريبية فى حياته اليومية أسبق إلى ذهنه وعقله من مرحلــة التساؤل حولها وحول أسبابها، فضلا عن تفسيرها تفسيرا دينيا، وهــذا واقع ومشاهد فى حياة كل منا نلاحظه صباحا ومساء، حتــى لــدى الأطفال والحيوان نجد كثرة المشاهدات المحسوسة لدى الطفل تكــون

عنده مخزونا معرفيا وتجعله يتوقع حدوث الظاهرة عند مشاهدته لما يسبقها من أسباب دون أن يجد نفسه فى حاجة إلى تفسيرها أو التساؤل عن العلاقة بينها وبين أسبابها، وهذه مرحلة الطفولة النفسية التى تجد لذتها مرتبطة بالمحسوسات لشدة حاجتها العاجلة إليها وارتباطها بحياتها اليومية، أما مرحلة التعليل والتفسير، فإنها مرحلة تالية؛ لأن النفس الإنسانية فى هذا الشأن تكون فى موقف القابل للفعل المتأثر بما يشاهد، وليس فى موقف الفاعل أو المتسائل، فيكون التفسير التعليلى للظاهرة مرتبطا بعملية التجريد العقلى والتعميم فى التصورات الذهنية ومنطق العلم التجريبى، عادة ما يربط الظاهرة المحسوسة بأسبابها الحسية.

ثم فى مرحلة تالية يتجاوز العقل هذا المستوى الحسى إلى البحث عن العلل البعيدة ليتساءل عما وراء السبب المحسوس من قوى، يتساءل عمن جعل السبب مؤثرا فى مسببه؛ لأن الأثر فى حقيقته وجود وفعل، يحتاج فى أداء وظيفته وعمله إلى وجود أكمل منه وفاعل أكبر منه. وهذا هو التفسير الدينى للظواهر. فهو ليس تفسيرا أوليا فى الترتيب، ولكنه تفسير يأتى فى المرحلة الثانية، أو المستوى الثالث هذا لو قلنا جدلا بتفسير المستويات التاريخية الثلاثة، حسب رأى علماء الاجتماع، فالتفسير الطبيعى للمعارف الإنسانية إنها تبدأ بالمحسوسات وارتباط الظواهر الحسية بعضها ببعض ثم يكون

البحث عن العلل البعيدة للظواهر بعد تفسيرها تفسيرا حسـيا، وبعـد اكتشاف العلاقات المتبادلة بين الظواهر وأسبابها، وهذه هى مراحـل العمل العقلى ومستويات التفسير العلمى، ثم تأتى النظرة التحليلية التى تعود بالنفس الإنسانية إلى البحث عن العلل البعيدة من خلال طـرح الأسئلة الكثيرة، وذلك حين يتسع أفقها، فتتجاوز الكـون المحسـوس وظواهره إلى البحث عما وراءه من علل وأسـباب تحكـم مسـيرته وتنظم حركته فى شكل غائى لا عبثى، فى شكل ونسق يحقق معنـى العناية الإلهية بالكون والعناية بأجزائه، ويحقق غايـة الخـالق مـن وجوده وإرادته فيه وبدون هذا التفسير لا ينتظـم معنـى القصـد أو العناية الإلهية لخالق الكون جل وعلا؛ لأن هذا التفسير يربط الكـون بخالقه من خلال منظومة الأسباب والمسببات الحسية من جانب، ومن خلال الإيمان بما وراءها ووجود سببها من جانب آخر، وبدون هـذا التفسير لا يكون إلا التفسير العبثى الفوضوى للوجود، وهذا ما يـؤدى إليه التفسير التاريخى للدين كما يسمونه فى علم الاجتماع.

ونحن لا نجد صعوبة فى ربط هذا التفسير الثلاثـى للتـاريخ بقصة الصراع بين الكنيسة والعلماء التى سبقت الإشارة إليـها، لأن هذا التفسير يرجع فى تاريخه إلى أحـد علمـاء الاجتمـاع الذيـن عاصروا المعرفة القائمة بين الكنيسة والعلماء، وكان اوجست مونـت رائد علم الاجتماع الحديث أحد الذين رفضـوا تفسـيرات الكنيسـة الخرافية للظواهر الطبيعية، وينغى ان نعلم ان هذا التفسير التـاريخى

للدين تفسير محلى مرتبط بظروف ثقافية واجتماعية ظهرت فى بيئة معينة ومن العبث تعميمه على سائر الحضارات الإنسانية خاصة الحضارة الإسلامية التى تجعل طلب العلم فريضة وشريعة وتجعل من محاربة الجهل والخرافية وسيلة للتقرب إلى الله. ولم يكن منطق العلم فيها يوما ما متناقضا مع الوحى ولا منطق الوحى متعارضا مع منطق العقل، ومن هنا فنحن نرفض تعميم هذا التفسير التاريخى للدين على الإسلام لأنه خاص بالحضارة الغربية وظروف الصراع بين الكنيسة والعلماء فى العصور الوسطى.

وتاريخ الإنسان ليس حلقات متناقضة كما يصوره هذا التفسير وانما هو حلقات متكاملة كما يوضحه الفكر الإسلامى، فمن المعلوم ان الإنسان خلق من بداية عهده بالحياة خاليا من العلم والتصور، ثم زوده الله بأدوات تحصيل هذا العلم الذى يبدأ بالمحسوسات، ثم ينتهى بالمجردات. قال تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ [النحل:٧٨]، وتجد أن هذه الأدوات تذكر فى القرآن الكريم بهذا الترتيب، الذى يبدأ بالأدوات الحسية من السمع والبصر، ثم ينتهى بالفؤاد فى صيغة الإفراد أحيانا، وفى صيغة الجمع أحيانا أخرى، وهذه الأدوات هى التى تعمل وتباشر نشاطها فى حياة الإنسان بهذا الترتيب، الذى يبدأ بالمحسوسات، وينتهى بالمعقولات والمجردات، وهى كلها تعمل

عملها فى خطوط متكاملة ومتعاونة، وليس فى خطوط متتالية متعارضة، كما يذهب الوضعيون.

ومهما يكن من أمر، فإن التفسير التاريخى للدين إذا جاز الأخذ به فى حضارة الغرب، فذلك مرتبط بالظروف التاريخية التى تولد فيها هذا التفسير، فلا يجوز نقله أو الأخذ به فى الدراسات الاجتماعية عندنا وذلك لاختلاف الحضارة الإسلامية فى منطلقاتها وفلسفتها وفى أهدافها ومقاصدها عن حضارة الغرب. ولكن للأسف الشديد فإن هذا التفسير قد انتقل إلينا بهمومه وعيوبه ونقائضه ضمن ما نقل إلينا من الغرب دون أن يحاول أحد من المتخصصين التعرض له بنقد أو تمحيص، وأصبح فى عرفهم من المسلمات التى لاتقبل النقاش، وأخذوا يتعبدون به فى مؤلفاتهم ويلقنونه الطلاب فى دور العلم ومعاهده.

يتبين لنا مما سبق أن مصطلح التنوير نشأ فى هذا الجو الثقافى، الذى أفرزته طبيعة الصراع بين الكنيسة والعلم، فجاء محملا بالمعانى الآتية:

أ – الرفض المطلق للكنيسة: وأن آراء رجالها تجسيد للجهل والخرافة ومناقضة للعلم، وقد حل لفظ الدين محل الكنيسة، وانتقل المعنى الذى يتعلق بالكنيسة من رفضها العلم ومحاربتها

للعلماء لينسحب على الدين بالمعنى العام، وهذا أخطر مـــا فـــى هذه المشكلة.

ب ترتب على ذلك أن رفع العلماء فى أوروبا لواء الحرب ضـــــد كل ما هو كنسى (دينى) ليفسحوا بذلك الطريـــق أمـــام العلـــم والعقلانية ليحل التنوير محل الظلام، والعقل محل الخرافة.

جـ ترتب على ذلك أن ظهرت نزعة الإلحاد التى سادت العصـــر بأكمله، وكان من أهم آثارها التوجه العام نحو إشـــباع الغرائـــز الدنيا فى الإنسان على حساب كل ما هو دينى، وبات معنى القيـم والأخلاق كلمات باهتة لا معنى لها ولا مضمون، وارتبط ذلـــك أيضا بمعنى التنوير، حيث أصبح كل من يتمسك بالمفاهيم الدينية والقيم الأخلاقية رمزا للرجعية والتخلف، وصار المنحل أخلاقيـــا ودينيا هو رجل العصر الحديث "المودرنيزم" .

ومما يؤسف له أن كل هذه الملابسات التى ارتبطت بمصطلـــح التنوير انتقلت معه إلى الشرق العربى، وأصبحت من لوازم التنويـــر، فلم يعد التنوير قاصرا على رفض الجهل ومحاربة الخرافـــة، وإنمـــا امتد معناه ليشمل تغيير العادات والسلوك والقيم والمفاهيم الثابتة فـــى بلادنا، والمرتكزة على الأبعاد الدينية والخلقية. وتطـــور ذلـــك عنـــد البعض إلى رفض الإيمان بالغيب، فجعلوه من الخرافات التى نـــادوا بضرورة التخلص منها.

حقيقة التنوير:

بعد هذه المقدمات التى نرى أهميتها فى توضيح معنى التنوير، الذى نعيش حركته الآن نود أن نطرح سؤالا مـــهما حـــول حقيقـــة التنوير الذى تسعى إليه الشعوب، وما هى أسسه وركائزه، إن كلمـــة التنوير فى لغتنا العربية مأخوذة من الفعل " نور" الرباعى ومصدره " تنويرا" ، بمعنى أنار لغيره الطريق. وقد يكون ذلك التنويـــر حســـيا، وقد يكون معنويا. فإنارة الطريق الحســـى لـــه وســـائله المعروفـــة، كالمصباح والكهرباء مثلا، وليس هذا المعنى هـــو المقصـــود عنـــد استعمال هذا المصطلح بين المثقفين، وإنما المقصـــود هـــو الجـــانب المعنوى، بمعنى تنوير العقول، والقضاء على ما فيـــها مـــن ظـــلام، وكذلك تنوير الحياة الثقافية للمجتمع والقضاء على ما فيها من جـــهل، وكذلك تنوير الحياة السياسية، والقضاء على ما يشـــوبها مـــن ظلـــم ودكتاتورية كذلك. فإن ركائز هذا التنوير تتمثل فـــى أمـــور محـــددة تتناول حياتنا فى شئونها المختلفة، السياسية والاجتماعية والثقافية.

أ فى المستوى الثقافى: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العلـــم ــ والعقل.

ب وفى المستوى الاجتماعى: يرتكز التنوير على أســـس أهمـــها: الحرية ــ المساواة.

جـ- وفى المستوى السياسى: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العدل – الديمقراطية (الشورى).

هذه الركائز الأساسية هى عمدة الإصلاح فى كل نهضة. فلقد نهضت بها أوروبا حديثا، ونهض بها العالم الإسلامى يوم أن كان الإسلام عاملا محركا لسياسته، وحاكما لشئون الحياة فيه، ضابطا لها بأوامره ونواهيه علميا وثقافيا، واجتماعيا.

وهذه الركائز فى التصور الإسلامية لإقامة الدولة تمثل أوامر إلهية نزل بها الوحى، وفرضتها شريعة الإسلام، وتعبد الله بها المسلمين، والتفريط فى هذه الركائز أو فى واحدة منها يعتبر جريمة فى حق المجتمع، ومسئولية يحاسب عليها المسلم أمام الله يوم القيامة؛ لأنها تنبع من صميم الاعتقاد الإسلامى، وإهمال الأخذ بها أو التفريط فى واحد منها يجرح الاعتقاد ويجعل صاحبه – أيا كان موقعه – محلا للمساءلة أمام الله وأمام المسلمين. والأحاديث النبوية والآيات القرآنية أكدت فى أكثر نصوصها على ضرورة هذه الركائز كأسس لبناء الدولة الإسلامية.

ركيزتا العلم والعقل:

ولكل ركيزة من ركائز النهضة التى سبق أن أشرنا إليها ما يتعلق بها من النصوص والآثار التى تدعو إليها، فضلا عن أنها كلها

قد مارسها المسلمون عمليا، وأصبحت واقعا عاشه المسلمون في حياتهم في سلسلة متعاقبة من التاريخ.

والأخذ بهذه الركائز واعتبارها حلقات مهمة في منظومة التطور النهضوي، الذي تحرص عليه الشعوب هو المعيار الصحيح لحركة التنوير التي تنشدها الأمة. ولاشك عندنا أن أوروبا قد نهضت بمبدأ العلم والاحتكام إلى العقل في مواجهة الجهل والخرافة عند الكنيسة، كما أن نهضتنا المعاصرة ترتبط أيضا بالأخذ بهذين العاملين، وليس ذلك لأن أوروبا نهضت بهما، لكن لأنهما معا ــ العلم والعقل ــ أساس النهضة في كل أمة. ولا توجد أمة حاربت العلم أو رفضت منطق العقل، وحاولت أن تمني نفسها بالنهضة. إن ذلك شأنه كمن يمني نفسه بالحصاد دون أن يبذر الحب أو ينتظر النتائج قبل أن يحصل المقدمات. تلك قضية بديهية لايحتاج إقرارها إلى مزيد بيان أو تفصيل.

فكما نهض المسلمون بهما سلفا ينبغي أن يأخذوا بهما حاضرا ومستقبلا. لكن نود أن ننتبه هنا إلى نقطتين أساسيتين تمثلان محورا الخلاف بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي في مفهوم العلم وفي توظيفه.

تتصل النقطة الأولى بفلسفة العلم، فإنها تقوم في المشروع العلماني على قطع الصلة بين عالم الشهادة، الذي هو مسرح العلم

ومجال تطبيق نظرياته ومبادئه، وعالم الغيب، الذى يتخذ مـن عـالم الشهادة مقدمة ضرورية وآية للإيمان به، والوصول إليه من خلالـه، فإن فلسفة العلم فى أوروبا تبدأ طريقها من المادة، وتنتهى إلى المادة، ولا تؤمن بشىء آخر وراءها يقود إليه عالم الشهادة أو يـدل عليـه، ومن هنا اقتصرت بحوثهم على الأسباب الظاهرة الكامنة فى الطبيعة، واعتصموا بها، وجعلوها فاعلة بذاتها مستقلة فى الفعـل والتـأثير، مبتوتة الصلة عن خالقها، وجعلوا الحديث عـن خـالق آخـر وراء الأسباب الظاهرة فى الطبيعة حديث خرافة، وخـارج منطـق العلـم والعقل معا، وقالوا لا يجوز أن نسمح لأنفسـنا بـأن نتجـاوز هـذه الأسباب المادية بالبحث أو الحديث عما وراءها؛ لأن فى ذلك تجـاوزا لمنطق العقل والعلم إلى منطق الجهل والخرافة، ومن ثم فإن الحديـث عن الله ربا خالقا للعالم، وخالقا للأسباب ومسبباتها خارج تماما عـن دائرة المشروع العلمانى التغريبى للنهضة؛ لأنهم كما سبق يبدأون من المادة وينتهون إلى المادة، ولا شىء وراءها يجوز أن نتساءل حولـه أو نبحث عنه، هكذا قالوا وصرحوا فى بحوثهم وكتاباتهم [1] . وعلى هذا النحو أخذوا يدعون الناس إلى الإيمان بالعلم المستقل عن المعلـم الأول، ويدعون إلى الإيمان بالأسباب مستقلة فى تأثيرها عن الخـالق للسبب والخالق لأثره فى المسببات، فجاء عـالم الشـهادة عندهـم

[1] راجع كتاب ماهى النهضة لسلامة موسى فى مواضع متفرقة منه.

منفصلا عن عالم الغيب ولا علاقة بينهما. وإذا كانت هناك علاقة يؤمنون بها فهى علاقة التناقض التى تجعل الإيمان بأحدهما فى الإيمان بالآخر، والدعوة إلى الإيمان بأحدهما تحمل فى طياتها الدعوة إلى نفى الإيمان بالآخر، فإما الإيمان بالمادة فقط، وإما الإيمان بما وراءها. ولعل هذا يفسر لنا كثرة استعمال بعض المصطلحات التى تحمل معنى السخرية والاستهزاء بالمؤمنين بالغيب، حيث يطلقون عليهم مصطلح " الغيبيون"، أى المؤمنون بالغيب والغيب عندهم لا وجود له ولا دليل عليه، بل الإيمان به دليل الجهل والخرافة.

والأمر فى ذلك يختلف تماما عن مفهوم فلسفة العلم فى المشروع الإسلامى. ففى الإسلام نجد أن العلم مطلب شرعى، وفريضة دينية كثر الحديث عنها فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة. وكلما ازداد المرء علما بالصنعة وبالعالم زاد إيمانه بالخالق، وكلما ازداد عقل المرء تشبعا بأسرار الطبيعية ودقة قوانينها ازداد خشية للخالق. ولهذا جاءت الآية الكريمة حاصرة لهذا المعنى الدقيق فى قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[فاطر: ٢٨]. والمفروض عقلا أن العالم المدقق كلما ازداد تحصيلا لقوانين العلم واكتشافا لأسباب الظواهر يزداد تساؤله عن خالقها ودقة صنعتها وحكمة الخالق منها وفيها، ليقوده هذا النظر العلمى والتساؤل العقلى إلى الإيمان بالخالق الحكيم، الذى أحسن كل شىء خلقه وأتقن كل

شيء صنعه، فيقوده عمل العقل في عالم الشهادة بحثا وتنقيبا وكشفا عن الأسباب واكتشافا للعلاقات بين الأسباب ومسبباتها إلى الإيمان بالخالق الحكيم، فلا يعمل العقل في هذا العالم المحسوس المشاهد منفصلا عن العالم الغيبي، فهو ليس منعزلا في وظيفته الكونية عن عالم الغيب؛ لأنه آيته وبرهانه ومقدمة ضرورية تقود إليه ، ومن هنا كثرت الآيات القرآنية التي تأمر العقل البشري أمر وجوب بضرورة التأمل والتدبر في هذا العالم من سمائه إلى أرضه اكتشافا للسنن والقوانين وكشفا عن العلل والمعلولات الكامنة بين الأسباب والمسببات، وغالبا تختم هذه الآيات بجعل هذا الكون آية وبرهانا على الخالق الحكيم.

نعم إن المسلمين في القرون الأخيرة خذلوا إسلامهم يوم أن عطلوا العقل عن وظيفته الكونية التي دعاه القرآن إلى مباشرتها والنهوض بها؛ لأنه لم ينزل كتاب سماوي أمر العقل بتبني منهج في البحث الكوني يقوم على الاعتبار العقلي، وملاحظة الظواهر الكونية مثل القرآن، فليس في الإسلام أطفيء سراج عقلك، ثم اتبعني، والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة ومتنوعة. فمنها ما يتعلق بعالم الأفلاك، ومنها ما يتعلق بالأرض وما عليها، ومنها ما يتعلق بالإنسان ومايحيط من كائنات أخرى تتصل حياتها بحياته. ومن اللافت للنظر حقا أن كل الآيات المتعلقة بهذه الأنواع تدعو العقل إلى

الملاحظة وارتباط الظواهر بعضها ببعض كما هو الشأن في المنـــهج قال تعالى في الحديث عن بدء الخلق ﴿أولم ير الذين كفروا أن الســموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. [الأنبياء: ٣٠]

وقال تعالى ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلـــق الله من شيء﴾[الأعراف : ١٨٥] .

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكـين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظـــام لحما ثم أنشأناه خلقا﴾ [المؤمنون:١٢ــ١٤].

﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلـــى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت﴾[الغاشية:١٧ــ٢٠].

﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فـروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كـــل زوج بـهيج تبصـــرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنـــات وحـــب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلـــك الخروج﴾. [ق: ٦ ــ ١١].

﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾
[الذاريات: ٢٠،٢١]

﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم لـــه بخازنين﴾[الحجر: ٢٢].

﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرنـــاه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليـــل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾[يس:٣٨ ــ ٤٠].

﴿فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾

[الواقعة: ٧٥،٧٦]

بالإضافة إلى قسم القـــرآن بـــالظواهر الكونيـــة الأخـــرى، والشمس وضحاها. والعصر والفجر.. إلخ.

بل إن القرآن الكريم يعلم العقل كيف يبحث عن الحقيقـــة فى قضية الخلق والخالق ــ وهى من أعقد المسائل العقليـــة ــ فيطـــرح مجموعة من الفروض والاحتمالات ليناقش العقل القضية من خلالها. فيقول تعالى:

أخلقوا من غير شيء؟

أم هم الخالقون؟

﴿أم خلقوا السموات والأرض﴾ [الطور: ٣٦]

هذه الأسئلة يتضمن كل سؤال منها فرضا عقليا عن قضيـــة الخلق تعليما وتدريبا وترويضا للعقل البشرى ليصل بذلك إلى الحـــق اليقين.

قال تعالى: { ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكـــرون } [الذاريات: ٤٩] ، وقال سبحانه: ﴿إن الله فالق الحب والنـــوى يخـــرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصبـــاح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم وهو الـــذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيـــات لقـــوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيـات لقوم يفقهون وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات مـــن أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعـــه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ [الأنعام: ٩٥ ٩٩]

ولاحظ أيها القارئ الكريم خواتيم هذه الآيات القرآنيـــة علـــى الترتيب السابق: إن فى ذلك لآيات لقوم يعلمون. لقوم يفقهون، لقـــوم يؤمنون. إن هذه الآيات ــ وغيرها كثير ــ تستفز العقـــل وتســـتثيره ليلاحظ هذه الظواهر. كيف يرتبط بعضها ببعـــض وجـــودا وعدمـــا ليكتشف العلاقات السببية بينها. وهذه أولى خطوات البحث العلمـــى.

ملاحظة الظاهرة واعتبارها مع ما يرتبط بها من ظواهر أخرى وكلها محسوسة ومشاهدة.

لم تقرأ في تاريخ الفلسفة الإنسانية، ولا في تاريخ الأديان كتابا حفز العقول حفزا على العلم والتعلم والملاحظة والاعتبار، كما فعل القرآن الكريم، ولكن للأسف الشديد لم يتنبه المسلمون إلى هذه الأوامر الإلهية التي هي المفتاح الوحيد لتحقيق وظيفة الإنسان في تعمير الكون، كما نبه إليه الشرع بقوله تعالى: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾.[هود: ٦١]

إن وظيفة الكون كآية دالة على خالقه، ووظيفة الكون كمخلوق مسخر للإنسان لا ينهض بهما الإنسان إلا بمفتاح العلم. ومن هنا كانت آيات النظر والتفكير والتدبر كلها تتصل بالكون وما فيه من آيات، وملاحظة ظواهره وارتباط بعضها ببعض وجودا وعدما. وهذا يتصل بما نسميه خطوات البحث في العلوم. ملاحظة الظاهرة ـ واعتبارها بما قبلها وما بعدها وجودا أو عدما.

ولا ينبغي أن يفهم أحد من هذا أنني أقول إن القرآن كتاب في منهج البحث العلمي، أو أنه وضع خطوات البحث العلمي أو .. أو .. لا ليس هذا من مقصدنا، وإنما الذي أقصده أن نوضح لأولئك الذين يقولون إن الإسلام يحارب العلم نقول لهم هذا هو كتاب الإسلام ودستوره، وهذا هو موقفه من العلم والعلماء. فأروني كتابا سماويا

قبله حفز العقل إلى العلم حفزا بمثل ما حفزه القرآن، أو كتابا سماويا غيره ربط بين العلم والعقيدة كأساس لخشية الله ، كما ربط القرآن. فلماذا إذن يتقولون على الإسلام وهم لا يعلمون شيئا عن الإسلام، إلا ما يرونه من واقع المسلمين، ولا شك أنه واقع مترد يدعو إلى الأسف، وكان الأولى بهم ـ وهم مسلمون ـ أن يحثوا المسلمين على النهوض من هذه الكبوة بالاعتصام بمنطق العلم كمطلب شرعي وأمر إلهي، بدلا من أن يدعوهم إلى رفض الدين وتنحيته عن واقع الحياة.

إن من الإنصاف أن يفرقوا بين واقع المسلمين وحقيقة الإسلام، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك؛ لأن الحكم على الإسلام من واقع المسلمين فيه ظلم للإسلام من جانب، وفيه مجافاة للمنهج العلمى من جانب آخر.

إن وظيفة عالم الشهادة فى التصور الإسلامى أن يقود العالم به والمتأمل فى دقة صنعه، وما أودعه الله من أسرار ومكنونات يتم الكشف عنها آنا بعد آن. وما فيه من دلائل وبراهين تدل على العناية الإلهية، كما يقول ابن رشد: يقود الناظر المتأمل إلى الإيمان بخالق هذا الكون، ولكن فلسفة العلم الغربى التى يدعوننا إلى الأخذ بها وقفت بأصحابها عند منتصف الطريق، وضاع منها النصف الآخر، وبالتالى ضاع منها الموقف الكونى بكامله،حيث اقتصروا على المقدمات، وأهملوا البحث عن النتيجة، فلم يصلوا بذلك إلى شيء.

إن الأسباب فى التصور الإسلامى فاعلة ومؤثرة، هذه حقيقة نزل بها القرآن وحث عليها الشرع، ويجب الإيمان بها، والأخذ بمفهومها قال تعالى: ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون ﴾.[النحل:١١] وقال تعالى: ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد﴾[ق:٩] وباء السببية تكرر ذكرها فى القرآن كثيرا، ولام التعليل ورد ذكرها فى القرآن الكريم كثيرا، تكرر ذلك فى القرآن الكريم بشأن الأسباب الطبيعية وبشأن الأفعال الإنسانية على سواء، ليجعل ربط الأسباب بمسبباتها قاعدة وقانونا يستقر فى ذهن المسلم فلقد ذكر القرآن الكريم أن نزول المطر سبب فى إنبات الزرع، وفى القرآن كذلك ﴿أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ [الواقعة:٦٣]، والإيمان بهذه لا يتناقض أبدا مع الإيمان بتلك.

وفى القرآن الكريم ﴿أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون﴾.[الواقعة:٥٨،٥٩]. والإيمان بخالقية الله للجنين لا يتعارض مع الإيمان بمشروعية الزواج والإنجاب كسبب مباشر لذلك، وباء السببية ولام التعليل، كما قلنا تكرر ذكرهما فى القرآن على مستوى الأفعال الكونية، وعلى مستوى الأفعال الإنسانية. وهذه حقيقة مقررة فى الإسلام.

ولكن هذه الأسباب ومسبباتها هي فى النهايـــة مخلوقـــات لله. والأثر الكامن فى السبب الفاعل فى المسبب هو كذلك مخلـوق لله، إن شاء نزعه الله من السبب فلا يقع المسبب، وإن شاء أودعـــه الســبب وعطله عن الفعل بوجود المانع الأقوى منه، وإن شاء عطل المســبب عن قبول الأثر الفاعل، فلا ينفعل به ولا يقع المســبب أصــلا لتقــع المعجزات على يد الرسل والأنبياء تأييدا لصدقــهم، وبرهانــا علــى صحة دعوتهم؛ لأن القضية كلها كامنة فى قوله سبحانه: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾[الأعراف:٥٤]، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والحديــث فى هذا الموضوع بتفصيلاته قد يخرجنا عن الحد المرسوم لنــا فــى مثل هذه العجالة. ولكن أردنا التنبيه هنا إلى موطن الخلاف فى هــذه النقطة بين المشروع العلمانى التغريبى، والمشروع الإســلامى فــى فلسفة العلم، فإن المشروع العلمانى قد اختزل الموقف الوجودى كلـــه فى جانبه المادى وجعله قاصرا على البعد الحســى للوجــود. فكــان شبيها بالموقف الدهرى، الذى تحدث عنه القرآن الكريم فــى قولــه سبحانه: ﴿و قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نمـــوت ونحيــا ومــا يــهلكنا إلا الدهر﴾.[الجاثية:٢٤] فرد عليهم القرآن بقوله: ﴿وما لهم بذلك من علــم إن هم إلا يظنون﴾ ففى واقع الأمر ليس معهم من دليل علـــى صحــة قولهم، إلا الجهل بالدليل وعدم العلم به، فاتخذوا من عدم العلم بــالدليل دليلا على عدم الوجود الذاتى، وتلك خطيئة، مرذولة فى منطق العلم، لايغفرها ذو عقل أو صاحب منهج، إذ من المعلــوم أن نفــى العلــم

بوجود الشيء ليس نفيا لوجود الشيء فى نفسه، لأن عدم العلم ليس علما بالعدم، وأنت إذا سألت الواحد من هؤلاء عن دليله على ما يؤمن به ويدعو إليه لا تجد معه دليلا إلا عدم علمه بالدليل. والدليل الذى يجهله نزل به القرآن وناقشه عقليا، وطلب منه الإيمان به عن علم ويقين لا عن جهل وتقليد، ولكن " وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون".

أما النقطة الثانية: التى هى محور الخلاف بين المشروعين، فتتعلق بتوظيف العلم، فمن الأمور التى نبه إليها الإسلام أن هذا العالم وما يكتنفه من قوانين وعلاقات سببية بين أجزائه ينبغى أن يسخر لصالح الإنسان وتحقيق سعادته؛ لأن الكون كله مسخر للإنسان. قال تعالى : ﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا﴾،[الجاثية: ١٣] وقال سبحانه: ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا﴾[البقرة:٢٩] فالجماد يعمل فى خدمة النبات، والنبات يعمل فى خدمة الحيوان والإنسان، والحيوان يعمل فى خدمة الإنسان، فأنت لو تأملت وظائف الكائنات كلها فسوف تجدها تعمل فى شكل دائرى لتصب خدماتها جميعها لصالح الإنسان، وبالتالى فإن العلم والاكتشافات العلمية ينبغى أن تعمل فى هذه الدائرة فى خدمة نوع الإنسان كله. وليس لخدمة لون من البشرعلى حساب لون آخر. ولا تعمل لخدمة جنس على حساب جنس آخر. إذا اختل هذا الميزان

الشرعى فى توظيف العلم ومكتشفاته، فإن ضرر العلم على النوع الإنسانى يكون أكثر من نفعه، ذلك أن المشتغلين بالعلم فى كل أمة هم الأقل عددا بالنسبة لغيرهم، وبالتالى فلو سخر هؤلاء العلم لصالحهم هم دون غيرهم لأدى ذلك إلى نكوص العلم عن أداء وظيفته فى خدمة النوع الإنسانى، بل يؤدى إلى دمار الكون وخرابه، كما هو الشأن الآن فى أرجاء العالم، فبدلا من أن يوظف العلم لصالح النوع الإنسانى،وظفه أصحابه لخراب البلاد وقتل العباد فى الحروب وفى التسلح وتصنيع الأسلحة المدمرة، ولا يخفى على أحد كمية الأسلحة الذرية والبيولوجية التى تهدد العالم الآن. والتى يستذل بها دول الغرب العالم الثالث، وتحت وطأة الخوف منها ينهب الغرب ثروات العالم الثالث وخيراته.

إن التقدم العلمى الذى أحرزته أوروبا وأمريكا أمر تفخر به البشرية، ولا شك فى ذلك. لكن كيف توظف هذه الدول بحوث العلم ونتائجه؟ كيف يستذل به الشعوب أو كيف تتحكم به فى مصائر الشعوب؟ كيف تحكم به على بعض الشعوب بالخراب والدمار والتشريد؟ كيف تسخره لصالح الكيان الصهيونى لتشرد به شعبا بأكمله وعلى حساب العرب؟

إن توظيف العلم لصالح الإنسان مهمة إنسانية وشرعية تكتمل بها وظيفة الإنسان الكونية فى إعمار هذا العالم، وهو فى نفس الوقت

مسئولية شرعية وأمانة دينية استخلف الله الإنسان عليها، حيث يسأل عنها يوم القيامة، كما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال: " لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع.." فذكر منها وعن علمه ماذا عمل به، والحديث ذكر العلم بالمعنى العام، فلا وجه لتخصيصه هنا بالعلم الشرعى فقط. فالمفترض فى العلم أنه يعمر ولا يخرب، يبنى ولا يهدم، يسعد الإنسان ولا يشقيه، تلك وظيفة العلم النافع وهذه رسالته. ولو أن المليارات التى تنفق يوميا على صناعة التسليح للدمار والخراب وظفت لرفاهية النوع الإنسانى وإسعاده لما كان هذا التفاوت اللامعقول بين شعوب الأرض. وما وجدنا شعوبا تفترش الثرى وتلتحف العراء، وأخرى تفترش الحريروتلتحف الديباج. إن سوء توظيف العلم على يد الغرب هو المسئول عن هذا التفاوت المذهل بين الشعوب، ولا حل لهذه المشكلة إلا أن يوظف العلم بروح إسلامية، ويعمل لإسعاد النوع الإنسانى كله، وليس لصالح نوع واحد، أو جنس واحد على حساب الآخرين.

هاتان النقطتان(فلسفة العلم وتوظيف العلم) تمثلان خلافا جوهريا بين العلم فى التصور الإسلامى والمشروع العلمانى التغريبى.

العقـــــل:

أما العامل الثانى من عوامل النهضة الثقافيـــة، فـــهو العقـــل والتفكير العقلانى فى مواجهة الخرافـــة والتفكـــير الخرافـــى، وفـــى الإســـلام نجد أن العقل هو مناط الأهلية للخطـــاب الإلـــهى تشـــريفا وتكليفا، وهو حجة الله على عباده بالتكليف أمرا ونهيا، وفاقد العقـــل ليس مؤهلا للخطاب الإلهى أصلا لا أمرا ولا نهيا، وهو يعيش خارج دائرة التكاليف الشرعية، وبالتالى خارج دائرة المساءلة، ولم نجد فـــى كتاب سماوى سابق على الإسلام خطابـــا للعقـــل تكريمـــا وتشـــريفا واحتراما، كما جاء فى القرآن الكريم، ولا أريد أن أكرر هنا كلامـــا يقال كثيرا حول تعظيم العقل والإعلاء من شأنه كميزة خص الله بـــها الإنسان دون بقية الكائنات الأخرى ليصبح بذلـــك مؤهـــلا للخطـــاب الإلهى، فإن العقل وسيلة لفهم القرآن وأدائه، وهو المؤهـــل الوحيـــد للخطاب الإلهى للإنسان ولو تخلف العقل لسقط معنى الخطاب الإلهى وفات مقصوده، وفى نصوص الخطاب الإلهى تحذيرات كثيرة مـــن متابعة الهوى أو الخرافة أو حتى الظنون، باعتبار أن ذلك كلـــه فـــى خصومة مع العقل وفى محاربة له يجب التخلص منها كمدخل طبيعى للاعتصام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وإذا كـــانت وظيفـــة العلـــم القضاء على الجهل، فإن وظيفة العقل القضاء على الخرافة، والعقـــل والعلم معا هما جناحا النهضة الثقافية للشعوب، ولا قيام لأحدهما فـــى

غياب الآخر، وهما عندنا وجهان لعملة واحدة عنوانـــها: " النهضـــة الإسلامية: بالعلم والعقل"، ولا غنى للنهضة عن واحد منهما. وهذا ما أكده الإسلام ودعا إليه.

ولعل من المهم فى هذا السياق أن نفهم الحكمـــة فـــى أن أول خطاب إلهى للإنسان نزل به الوحى ليرشد الإنسان إلى أساس نهضته فى كل عصر كان قوله تعالى: {اقرأ}، وإن هذه القراءة يكون لحمتـها وسداها {اسم ربك الذى خلق}. فلا ينبغى أن نفصل القراءة عن اســـم ربك، ولا عن آياته الكونية، لتقود هذه القراءة العقل وصاحبـــه إلـــى العلم بالكون وأسراره فى صحبه تلازمية بين قراءة الكـــون وآياتـــه وخالقه سبحانه لتربط المقدمات بنتائجها برباط العقل الصريح، الـــذى لا يخطئ النتيجة إذا أحسن الأخذ بالمقدمات بمنهج علمى رشيد.

وهذا دليل صريح على محاربة الجهل بشتى صـــوره، ســـواء كان هذا الجهل متصلا بأصول الاعتقاد وتنظيم علاقة العبد بخالقـــه، أم متصلا بالعادات والأعراف الاجتماعية، أم متصـــلا بالتفســـيرات الخرافية للظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعيـــة، ومـــن اللافـــت للنظر، ومما ينبغى ألا نهمله فى هـــذه الســـياق أن الإســـلام يربـــط الموقف العام من هذه القضية بسلامة العقيدة أو فسادها، فلقـــد حـــذر الرسول المسلم من اللجوء إلى العرافين والكهنة والســـحرة. ليســـتقى منهم المرء ما يظنه علما أو معرفـــة تتصـــل بحياتـــه أو مســـتقبله،

أوتتصل ببعض الظواهر الأسرية، واعتبر ذلك خروجا على الاعتقاد الصحيح، كما هو خروج على العقل السليم قال صلى الله عليه وسلم: " من ذهب إلى عراف أو كاهن، فقد كفر بما أنزل على محمد".

وكم حذر الإسلام من اتباع الظنون والأهواء فى بناء اليقين وإصدار الأحكام سلبا، أو إيجابا، واعتبر كل ذلك منشأ للضلال وخروجا على منطق العقل والعلم بقدر ما هو خروج على صحة الاعتقاد.

- ركيزتا الحرية والمساواة:

وعلى المستوى الاجتماعى نجد أن مبدأ الحرية والمساواة يمثلان فى الإسلام أساسيات العلاقات الاجتماعية بين الناس. لأمرين مهمين جدا:

الأمر الأول ــ أن هذين المبدأين ينبعان أصلا من اليقين بالله، وأنه رب كل شيء ومليكه وخالق كل شيء ورازقه وإنه المحى والمميت، وعلى سبيل الإجمال فإن له الخلق والأمر وحده، والإيمان بهذه الحقيقة يعطى المسلم مفتاح التعامل مع الناس من واقع إيمانه بهذين المبدأين، فالإيمان بوحدانية الخالق الرازق يجعل عبودية المرء له وحده، وبقدر إخلاص هذه العبودية لله يتحرر المرء من عبوديته لغيره، وهذا يجعل الإيمان بالحرية على أنها فريضة دينية يحاسب المسلم على التفريط فيها. فهى ليست منة من أحد ولا هبة من حاكم

لشعب، وإنما هى فرض دينى يجب صونه والدفاع عنـــه. والإيمـــان بقضية الحرية لا يقتصر على معنى الحرية السياســية فقــط، وإنمـــا تشمل الحرية العقائدية والدينية والاجتماعية، ولهذا فـــإن الفتوحـــات الإسلامية كان من أهدافها الكبرى تأسيس هذا المعنى للحريـــة فـــى نفوس الناس، وحمايته من سطوة حاكم طاغية أو تسلط ظالم مســـتبد، ولقد جسد هذا الهدف الدينى للحرية القائد المسلم العظيم حين أعلـــن صراحة " إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلـــى عبـــادة رب العباد" ، إنه بذلك يجسد معنى الحريةلتكون واقعا يعيشـــها الإنســـان، وينعم بها فى مواجهة تسلط ظالم أو طغيان حاكم. إنها مبدأ لايحد من إطلاقه إلا عدم الإضرار بحرية الآخرين أو النيل منها، أو النيل مـــن عقائد الآخرين أو أديانهم، فكما يحرص الإسلام على حريـــة أبنائـــه يحرص بنفس القدر على حرية الآخرين واحـــترام عقـــائدهم. فـــإذا دعاهم إلى الإسلام فيكون منهجه فى الدعوة منهجا قرآنيا أشار إليـــه سبحانه وتعالى فى قوله تعالى:﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظـــة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل:١٢٥]. فإن اســـتجابوا فبـــها ونعمت، وإلا فلا سلطان له عليهم. ومـــن واجبـــه نحوهـــم احـــترام عقـــائدهم وصـــون كنائســـهم ومعـــابدهم. قـــال تعـــالى: ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم﴾

[الأنعام: ١٠٨].

والحرية من جانب آخر هى التـــى تمنـح المـــرء إحساســه بالمساواة مع الآخرين، فكلهم لآدم، وآدم من تراب، والقرآن الكريـــم والسنة النبوية المطهرة حين يؤكدان قضية الحرية، فإنما يؤكدان فـــى نفس الوقت قضية المساواة والعكس صحيح، ففى القرآن الكريم نجـــد هذا المبدأ مجسدا فى صيغة قاطعة لاتحتمل التـــأويل قـــال تعـــالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، [الحجرات : ١٣]، وفى السنة النبويـــة "كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيـــض على أسود إلا بالتقوى"، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لابنتـــه فاطمة: " يا فاطمة بنت محمد اعملى، فانى لا أغنى عنـــك مـــن الله شيئا، يا فاطمة بنت محمد. لا يأت النـــاس بأعمالـــهم يـــوم القيامـــة وتأتونى بأنسابكم وأحسابكم".(١)

وعمر بن الخطاب يستدعى ابن الأمير عمـــرو بـــن العـــاص ليقتص منه لغير المسلم، والقضيـــة مشـــهورة، ويقـــول لـــه كلمتـــه التاريخية: " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

إن ركيزتى الحرية والمساواة يمثلان النسيج الإسلامى، الـــذى يسرى بخيوطه فى نسيج المجتمع الإسلامى ليربـــط بين أفراده بـــهذا الرباط العقائدى ليجعل منه وحدة اجتماعية تستمد قوتهـــا من إيمانـــها

---

(١) رواه البخارى ٧٠٦/٤ (كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد فى الأقـــارب، ١١٢/٦؛ النسائى ٢٠٨/٦؛ الدار ص٣٠٥/٢.

واعتقادتها بهذا المبدأ ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، " كلكم لآدم وآدم من تراب"، ولأهمية هذين المبدأين الحرية والمساواة) في تأسيس المجتمع والحفاظ على كيانه نجد الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع يخصهما بالتفصيل ويجعل منها قاعدة الإصلاح لكل بناء اجتماعى قبل أن يعرف الناس ما يسمى بوثيقة حقوق الإنسان من أربعة عشر قرنا. إنه صلى الله عليه وسلم يقرر في خطبته الحاجة حقوق الإنسان كنوع وليس حقوق لون معين ولا جنس معين من بنى البشر دون بقية الألوان والأجناس، إنه يقول: " أيها الناس" بهذا العموم الشامل " كلكم لآدم وآدم من تراب لافضل لعربى على عجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. إن أموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا".

ونصوص الإسلام فى تقديس الحرية والمساواة لا يتسع المقام لسردها، ولكن فقط هى إشارات موجزة لكى يعرف الشباب أن حقوق الإنسان فى الحرية والمساواة لم نجدها مصونة فى غير الإسلام بهذا السياج العقائدى المتين. وهذا بخلاف ما نسمع عنه من مواثيق حقوق الإنسان التى لا يتمتع بها إلا الإنسان الأوروبى أو الأمريكى فقط، فإذا أصابهما أذى أو مس أحدهما ضر تقوم الدنيا ولا تقعد، أما الإنسان المسلم فى البوسنة والهرسك، أما الإنسان المسلم فى فلسطين، أما الإنسان المسلم فى كشمير وفى الشيشان، فإن وثيقة حقوق الإنسان لم توضع لأجله، وليس من نصيبه أن تطبق عليه

بنودها، وإنما يباح دمه وعرضه على مسمع من العالم كله، ولا يتحرك لأجله أحد.

ركيزتا العدل والشورى:

لفت القرآن انتباهنا فى أكثر من آية إلى أن العدل ركيزة أساسية لقيام الممالك وبناء الحضارات، وإن غيابه عن نظم المجتمع ومسيرة الحياة فى العلاقات المتبادلة بين الناس من جانب وبين الحاكم والمحكوم من جانب آخر سبب فى انهيار الحضارات وهلاك الأمم.

وحين يقص القرآن الكريم قصص الأمم الماضية وأحوالها لم يكن القصد من ذلك مضيعة الوقت أو التسلية، وإنما كان القصد والغاية خلق الوعى التاريخى فى عقول الناس، الوعى بالتاريخ وأحداثه، التعرف على أسباب انهيار الأمم، وأسباب اندثار الحضارات، حيث يحل الظلم محل العدل، ويسود الاستبداد بدلا من الشورى، وتقهر الشعوب بسيف السلطان الباطش، إن هذه القصص القرآنية تهدف ـــ فيما تهدف ـــ إلى أن صناعة الطغيان تتم بيد الشعوب التى تسمح لحكامها أن يستبدوا، وأن الشعوب هى صانعة الطغاة فى كل عصر حين يتنازلون عن ممارسة حقهم التاريخى ليتولى الحاكم الطاغية تصريف شئونهم، نيابة عنهم بالبطش والاستبداد مرة، وبسلب حريتهم بوسائل مختلفة مرات ومرات، ولكن

النتيجة المحتومة لا يتحملها الطاغية بمفرده، وإنما تعود النتائج السيئة على الأمة التي صنعت بيدها هذا الطاغية، أو ذاك.

إن قراءة التاريخ توضح لنا أن الشرق والشرقيين عموما يحتكرون صناعة الطغيان، ويباركون ميلاد الطغاة، حتى كاد أن يشيع بين مؤرخي الحضارات أن الطغيان صناعة شرقية خالصة، ولقد جسد القرآن مجموعة الضوابط التي ساقها في شكل الصيغ التي هي أشبه بالقواعد الاجتماعية التي يتضمن كل منها سنة كونية من سنن الله في خلقه، فإذا مارست الأمم أسباب هذه السنة الكونية كان لابد من وقوع هذه السنة وحلولها بالأمة، لأنها لا تتخلف أبدا ما دامت قد وقعت أسبابها، وهذه غاية القص القرآني وأحد أسبابه الكبرى، والوقوف على هذه السنن وأسبابها ونتائجها ودورها في بناء الممالك وانهيار الحضارات.

قال تعالى :

١ ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: ٢٥]

٢ وقال سبحانه ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ [الكهف: ٥٩]

٣ وقال سبحانه: ﴿ إنه لا يفلح الظالمون﴾ [الأنعام: ٢١].

٤ وقال سبحانه: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ [يونس: ١٣]

٥ وقال سبحانه: ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾ [هود:١١٣]

٦ وقال سبحانه: ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ [إبراهيم: ١٥].

إن من سنن الله فى قيام الممالك وانهيارها سيادة العدل أو غيابه، وارتباط العدل بنظام الملك ارتباط عضوى، كارتباط الأسباب بنتائجها سلبا وإيجابا، ولذلك كان من تراث هذه الأمة " إن الله يقيم الدولة العادل وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"، وهذا قانون عام أثبت التاريخ صدقه، ونبه إليه مفكرو الإسلام كابن تيمية، وابن خلدون، والفارابى والكندى، وليس من العدل أن يحتج أحد على عدم صحة القانون بفساد الناس فى سلوكهم أو بظلم بعض الحكام فى عهودهم، فإن ذلك لا يخلو منه تاريخ أمة من الأمم، ولا مجتمع من المجتمعات، فكم من القوانين الرائعة ضاعت هيبتها عند التطبيق على يد الأتباع، وكم من مبادئ سامية ضاعت قيمتها بسبب فساد وانحراف الأتباع.

إن ارتباطتى العدل والشورى بالعقيدة سلبا وإيجابا يعطيهما قيمة الحياة فى نفوس الناس فى الممارسة العملية، فى الحكم بين الرعية؛ لأنها تكون حينئذ التزاما عقائديا دينيا، باعثه ذاتى والدافع إليه يقين المسلم بالله وليس إلزاما قانونيا يمارس من واقع الرقابة الخارجية للسلطان أو المجتمع، فشتان بين هذا وذاك.

إن القرآن الكريم جاء بالأمر الإلهى صريحا بالعدل وجعله فريضة ملزمة لكل من يتولى شئون الناس، وربطه ربطا محكما بالعقيدة ليستقر فى ذهنية المجتمع أن شئون الحكم وسياسة المجتمع من خصوصيات الاعتقاد السليم واليقين الصحيح، وذلك منطق فطرى فى نفوس البشر محبة العدل وكراهية الظلم.

قال تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى : ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ [النساء:٥٨]

وقال تعالى: ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾ [ص: ٢٦].

ولقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم المثل والقدرة العملية أمام الصحابة فى تطبيق مبدأ العدل، فلقد جاءه أشراف قريش يشفعون عنده فى امرأة سرقت، وهى فاطمة المخزومية، فعلمهم الرسول أن صيانة الحقوق لا ينبغى أن تضيع بشفاعة الشفعاء، ولو كانوا من أشراف قريش فقال صلى الله عليه وسلم :" أتشفعون فى حد من حدود الله. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. إنما هلك من كان قبلكم إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد".[1]

(١) رواه البخارى : ٢٣/٥ (كتاب الفضائل، باب ذكر اسامة بن يزيد)؛ ١٧٥/٤؛ مسلم ١٣١٥/٣ وكذلك رواه ابو داود ١٨٨/٤، الترمذى، النسائى.

لقد نبههم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكمن الخطر في انهيار الممالك وهلاك الأمم. وضياع الحقوق بين الناس، أكل أموال الناس بالباطل، ضياع قيمة العدل وتفشى الوساطات كوسيلة لضياع الحقوق، فمن لا يملك يعطى من لا يستحق، وهذا من أسوأ الأمراض وأخطرها فى سقوط الممالك وانهيارها، والأمر لا يحتاج إلى بسط أو تفصيل أكثر، لأن بيان قيمة العدل أمر معلوم من الدين بالضرورة، وكذلك الشورى فقد أمر القرآن الكريم الرسول صلى الله عليه وسلم بممارستها، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم (وشاورهم فى الأمر).

وجعل من صفات المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول أن (أمرهم شورى بينهم) ـ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لصاحبته: "أشيروا على أيها القوم".

فهذه الركائز هى أسس النهضة فى كل الأمم، لا أقول تبناها الإسلام، ولكن أقول إنها ولدت فى ظل الحضارة الإسلامية، وبشهادة ميلاد إسلامية؛ لأن أصولها قرآنية خالصة، وليست هناك حضارة ـ تبنت نصوصها المقدسة هذه المبادئ مجتمعة إلا الحضارة الإسلامية، وليس فى دساتير الأمم نصوص سابقة على الإسلام تبنت هذه المبادئ وجعلتها غاية ومقصدا لليقين والاعتقاد. إن هذه المبادئ تمثل فى الإسلام عقيدة وشريعة، فهى التزام عقائدى وليست إلزاما قانونيا، ولعل فى الإيجاز هنا ما يغنى عن الإطناب والتفصيل؛ لأن ذلك له مجال آخر.

بداية المشروع العلمانى

يكاد يجمع الدارسون والمهتمون بعوامل النهضة الحديثة على أن بداية هذه النهضة ارتبطت بعصر محمد على من جانب، وبالحملة الفرنسية من جانب آخر، فإن محمد علىّ قد وجه اهتماماته إلى النهوض بمصر زراعياً، فشق الترع وأقام الجسور والسدود والقناطر، واجتماعياً وثقافياً، فأرسل البعثات إلى أوروبا، وشجع التعليم، فأقام المدارس ونشر أبناؤه رياح التعليم من بعده فى ربوع مصر.

ومن جانب آخر، فإن معظم الدارسين لهذه القضية يربط بدايتها بالحملة الفرنسية، ويجعل مطبعة نابليون التى جلبها إلى مصر بداية عهد جديد فى مصر، يسمى عصر التنوير؛ لأن الشرق العربى لم يكن له عهد بالمطابع قبل حملة نابليون على مصر.

ونحن من جانبنا ندعو إلى التحفظ فى تقبل هذه الأحكام على إطلاقها، ذلك أن مسيرة التاريخ فى مصر وقراءة عوامل نهضة عالمنا العربى عموما كانت تسير فى خطها الطبيعى، وإن بدا هنا بطيئاً، لكنه كان يسير فى اتجاه مخالف فى الأهداف والمقاصد لمن أرخوا لعصر النهضة المصرية بدخول الحملة الفرنسية مصر، ولا أشك فى أن محمد علىّ قد خطا خطوات ملحوظة فى مسيرة هذه النهضة وبعث عواملها، كما لا نشك فى أهمية الاحتكاك الثقافى الذى

حصل بين رجال الحملة الفرنسية والمجتمع الشرقى عموماً فى مصر وفى عكا، لكن لا ينبغى أن نبالغ فى هذه القضية فنجعلها بداية لعصر النهضة فى الشرق عموماً وفى مصر خصوصاً، فإن المطبعة التى جلبها نابليون إلى مصر لم تكن هى أول مطبعة عرفها الشرق، كما يدعى أصحاب هذا الرأى، بل إن الشرق قد عرف المطبعة وتعامل بها قبل حملة نابليون بما يقرب من قرن كامل، فإن مقر الخلافة فى الأستانة قد عرف الطباعة بتجميع الحروف البارزة التى اخترعها " جوتنبرج الألمانى" بفضل أحد أبناء السلطنة، والذى قدم للسلطان أحمد الثالث تقريراً يبين فيه أهمية الطباعة وضرورة الاستعانة بها فى المكاتبات ونشر الثقافة، وبدأت السلطنة تعتمد عليها ابتداء من سنة ١٧٢٨[(١)]، كما أن مطبعة بولاق بدأت نشاطها الثقافى فى مصر من عام ١٨١٩، أو ١٨٢٢، وأصبحت مطبعة بولاق من هذا التاريخ ركيزة أساسية لنشر أمهات الكتب الثقافية فى مصر والعالم العربى، فلماذا يعول الدارسون على مطبعة نابليون ويجعلونها رمزاً حضارياً لبداية النهضة فى مصر، ويهملون دور مطبعة الخلافة ومطبعة بولاق؟ ولماذا الإصرار على ربط بداية نهضتنا بالحملة الفرنسية فقط إن هذا الموقف يحتاج من الدارسين إلى مراجعة أمينة وقراءة التاريخ بعين العربى المسلم، لا بعين الأوروبى المستشرق.

[(١)] راجع الإسلام المعاصر: د. على مراد بالفرنسية، ترجمة محمود على مراد ص٤١، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤.

ومهما يكن من أمر، فإن التيار العلمانى فى مصر بدأ فى أواخر القرن التاسع عشر، واشتد عوده فى مصر إبان عصر الاحتلال، ولا زال يدندن حول قضايا التغريب إلى الآن، مستعملاً فى ذلك ألفاظ الغرب ومصطلحاته مثل التنوير ــ التقدمية ــ العلمانية.

وأنشئت فى مصرمؤسسات ثقافية حرسها الاستعمار، وسهر على تغذيتها بالأقلام والعقول التى أخذت عن الاستشرق منهجه فكراً وثقافة، وجاءت هذه العقول إلى المنطقة لتثبت أفكارها وتنشر آراءها خلال نشاط هذه المؤسسات، وحاولوا بطرق مختلفة نقل المشكلات التى مثلت بؤرة الصراع بين الكنيسة والعلم فى العصور الوسطى بأوروبا بملابساتها وظروفها إلى مصر والعالم الإسلامى، واستوردوا لها نفس الحلول التى تخلص بها العلماء من سطوة الكنيسة فى الغرب، ودون أن يفطنوا إلى أن الإسلام فى موقفه من العلم، ليس هو الكنيسة فى موقفها من العلم، وأن المجتمع الإسلامى ليس هو أوروبا فى عصورها المظلمة.

فنادوا ــ ولا يزالون ــ بفصل الدين عن الدولة، كما فصلت أوروبا السلطة السياسية عن السلطة الدينية ناسين أو متناسين أن السلطة الدينية ليس لها فى الإسلام مكان ولا مكانة، لا على خريطته الأصولية، ولا على خريطته التاريخية.

ونادوا ــ ولا يزالون ــ بالدولة المدنية التي ينبغي أن لا تخضع للإسلام في شيء. لا في الحكم، ولا في الثقافة، ولا في شئون الحياة الاجتماعية والمدنية. فنادوا بأن يكون التعليم مدنياً لا دينياً، وأن يكون الحكم لا دينياً، وأن يكون شعار الدولة الرسمي هو اللادينية. هكذا نادوا في الماضي ولا يزالون في الحاضر.

كما نادوا ــ ولا يزالون ــ بأن تحذو المرأة في مصر حذو المرأة في أوروبا، خاصة في فرنسا حذو القذة بالقذة في العادات والتقاليد.

كما نادوا ــ ولا يزالون ــ بمساواة المرأة بالرجل في الميراث تطبيقاً لمبدأهم اللاديني، وليس ببعيد عن العقلية المصرية ما جرى على صفحات الجرائد والمجلات من السباب والشتائم والاتهامات، واستدعاء السلطات على من كتب تقريراً علمياً ينقد فيه مؤلفات بعض العلمانيين الذي ينادون بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، ولقد قامت الدنيا ولم تقعد إلى الآن بسبب هذا التقرير الذي انتصف فيه صاحبه لدينه ولوطنه.

وتمخض نشاط العلمانيين في نهاية القرن الماضي وأوائل هذا القرن عن مجموعة من المؤلفات التي مثلت المرجعية الفكرية للعلمانيين المعاصرين، فألف قاسم أمين كتابيه عن المرأة، "تحرير المرأة" و " المرأة الجديدة"، وألف سلامة موسى كتابه: "ما هي النهضة".

وألف على عبد الرازق كتابه " الإسلام وأصول الحكم"، وألـف طه حسين " مستقبل الثقافة فى مصر"، وكتابه " فى الشعر الجـاهلى"، لكنه رجع عن آرائه فى هذين الكتابين فيما بعد.

كما ألف كرومر المستشار الإنجليزى للاحتلال فـــى مصـــر كتابه " مصر الحديثة"، وجسدت هذه المؤلفـــات وغيرهـــا مطـــالب العلمانيين فى الوطن العربى التى نوجزها فيما يلى:

١- أن يحذف من الدستور النص على أن الدين الرسمى للدولة هـــو الإسلام لتصبح دولة علمانية لا دينية، وأن يحذف مـــن القوانيـــن كل ما يتصل بالإسلام كعقيدة وشريعة.

٢ أن تنقى برامج التربية والتعليم من المواد الدينية، فيحذف مـــن مناهجها كل ما يتعلق بالإسلام، والتربيـــة الإســـلامية، ليصبـــح التعليم علمانياً لا دينياً.

٣ ليس هناك شىء مقدس فوق النقد، ولابد أن تخضع النصـــوص الدينية (الكتاب والسنة) للنقد العقلى، فما قبله العقل منها يؤخـــذ به، وما لم يقبله العقل لا يعمل به.

٤ مساواة المرأة بالرجل فى الإرث الشرعى، وفى حـــق القوامـــة على الرجل، والعصمة، وكما سمعنا فى مؤتمـــر الســـكان ســـنة

١٩٩٢م من تكوين الأسرة غير التقليدية، يعنى المعاشرة الجنسية بدون رباط الزوجية، ولقد وقف شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق معلناً رفضه لقرارات هذا المؤتمر كما رفضتها كذلك أجهزة الدولة الرسمية.

والمؤلفات التى سبق ذكرها تجسد هذه المطالب وتعبر عن هذا المشروع فى نواحيه الثقافية والاجتماعية والسياسية، ومن الإنصاف أن نشير هنا إلى أن أصحاب هذه المؤلفات قد رجع بعضهم عن آرائه فى أواخر أيامه، لكن ما زال أثرها حياً فى عقول تلامذتهم، يحركهم ويتغنون بما فيها على أن فيه الخلاص وبه النهوض، ولم يعلم أصحاب هذه الأصوات أن مؤلفى هذه الكتب التى يحتفلون بها قد رجعوا عن آرائهم فيها، بل إن بعضهم قد صرح بنقيض ما ذهب إليه فى هذه المؤلفات.

واقتداء بالغرب، فكما أبعدت السلطة الكنيسة عن الحياة وشئونها قام فى مصر من نادى بضرورة فصل الدين وإبعاده عن شئون الدولة، وألف على عبد الرازق كتابه " الإسلام وأصول الحكم" استعار فيه آراء المستشرقين، خاصة القساوسة واليهود، حاول المؤلف جاهداً أن يقول فى هذا الكتاب: إن الإسلام دين لا دولة، وأن حديثه عن توحيد المؤمنين به إنما هو حديث عن الوحدة الدينية، وليس حديثاً عن الوحدة السياسية، وأن ولاية الرسول على المسلمين

ولاية روحية فقط، أما ولاية الحاكم فهى ولاية مادية، وأجهد المؤلف نفسه فى تلمس الأدلة التى حاول أن يؤيد بها دعواه فى الفصل بين وظيفة الرسول ووظيفة الحاكم، ولم يحاول أن يقرأ قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، ولسنا فى مجال الرد على هذا الرأى أو ذاك، وإنما نعرض فقط تاريخ الموقف العلمانى وتسلسل الأحداث، وارتباطها اللاحق منها بالسابق.

وقد شكلت لجنة من علماء الأزهر لتفنيد دعاوى هذا المؤلف والرد عليها، لكن مازالت الأصوات ــ حتى يومنا هذا تنادى بالدولة المدنية العلمانية وتنحية الإسلام عن شئون الحياة العملية، ولم يعلموا أن على عبد الرازق قد رجع عن رأيه ١٩٤٦، بعد أن تبين الحق له، وقال بأن الإجماع أصل من أصول التشريع الإسلامى، وأن الإمامة ثابتة بإجماع الأمة.

٣ والتقت أهواء العلمانيين على تمجيد النموذج الغربى حضارة ومدنية، فكراً وثقافة، علاقات اجتماعية، ونظام حياة ووضع سلامة موسى كتابه " ما هى النهضة" يطالب فيه المجتمع المصرى إذا أراد أن ينهض كما نهضت أوروبا فعليه أن يحذو حذوها فى العادات والتقاليد، فى المأكل والمشرب، فى الفكر

والثقافة، فى التخلص من الأديان، كما تخلصت أوروبا، ويصـرح بأنه لا سبيل لنا إلى النهوض إلا بالتخلص مـن الغيبيـات، وأن نجعل هذه الحياة الدنيا هى الهدف والغاية، ويجب أن نعمل لها لا لغيرها، فليس وراءها ما يستحق أن نعمل لأجلـه، وأن الإيمـان بأن هناك دارا نعمل لها غير هذه الدار الدنيا محض خرافة وعين الجهل، ولم تتـقدم أوروبا إلا حيـن رفضـت هـذه الخرافـات ومحاربتها هذه الجهالات، وكتاب سلامة موسى يقوم كله علـى أساس هاتين الفكرتين:

الأولى: أن نجعل الغرب قبلتنا فى كل شىء فنحذوا حـذوه، وكـرر نفس القضية طه حسين فى كتابه " مستقبل الثقافة فى مصر"، ولا زالت الدعوة مستمرة إلى وقتنا هذا.

الثانية: إنكار الأديان، والعمل من أجل الدنيا، إذ ليس وراءها شـىء يجب أن نعمل له، والحديث عن اليوم الآخـر هـو حديـث خرافة ويترتب على هذه النقطة الثانية ضرورة التخلص مـن كل فكر دينى، أو عقيدة تدعو إلى الإيمان باليوم الآخر.

بدأت هذه الفكرة سافرة في كتابات سلامة موسى، ومـازالت أصداؤها تتردد حتى يومنا هذا في كتابات دعاة التنوير، والذى يتـابع ما ينشر فى صفحات الجرائد اليومية، واستعمال كلمـات الجـهل ــ الخرافة، الرجعية، ويتعرف على المقصود بهذه الكلمات يدرك تمامـاً

أن المسلسل مازال مستمراً، قد ينشط أحياناً ويشتد عوده، وقد يخبو ويذبل أحياناً أخرى، حسب الظروف السياسية والعلاقات الدولية وأثرها فى ذلك.

وكان بين الأساليب التى سلكها أصحاب هذا الاتجاه فى تمجيد الحضارة الغربية تهجين الحضارة الإسلامية والحط من شأنها وتصوير الماضى كله على أنه تخلف وظلام وفساد وإفساد، وأن العودة إليه أو الدعوة إلى إحيائه بالإفادة منه هى ـ عندهم ـ عين التخلف والجهل، فإذا دعا داع إلى التمسك بالكتاب والسنة كمصدرين للتشريع اتهموه بالتخلف، ووصفوه بالجهل، وإذا نادى مناد بوحدة المسلمين ، كما اتحدت دول العالم تحت مسميات مختلفة اتهموه بالتعصب والطائفية، وإذا قرئ عليهم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١] قالوا : إنها دعوة إلى الحياة البدائية التى كان يعيشها إنسان الصحراء ويقصدون بذلك النبى صلى الله عليه وسلم.

وكانت المرأة وعلاقاتها بالرجل موضع اهتمام وبحث، ورددوا ما قاله المستشرقون الذين يقرأون القرآن بعين عوراء، فلا تبصر إلا ما يحلو لها بصره فقط، فأثاروا مشكلات لا أصل لها فى ثقافتنا الإسلامية وظهرت مصطلحات غربية ليس للمسلمين عهد بها " مثل

تحرير المرأة" ، "حقوق المرأة"، " مساواة المرأة بالرجل" ومن يقرأ هذه المصطلحات يخيل إليه لأول وهلة أن المرأة في الإسلام مسترقة، ضائعة حقوقها، يستلبها الرجل أموالها. وهذه كلها مشكلات وافدة علينا ليست وليداً شرعياً لديننا ولا ثقافتنا، ولكنهم هكذا أرادوا شغل المثقفين عن مصير بلادهم والاشتغال عن عظائم الأمور التي تجري فيها بالانشغال بالأمور التافهة التي يطول الجدل حولها، ويشتد الصراع في بؤرتها، لتبقى النار مشتعلة بين المسلمين فلا يبصرون من مشكلاتهم إلا هذه الأمور الزائفة، أما المشكلات الحقيقية، التي تهتز لها الأوطان، وتنهض بها الأمم، فهم في غيبوبة عنها؛ لأنه لا يراد لهم أن ينشغلوا بها، والقرآن والسنة تفيض نصوصهما بحقوق كل من الرجل والمرأة قبل الآخر، وواجبات كل منهما نحو الآخر، بل كانت نصوص القرآن والسنة في جانب المرأة أكثر من جانب الرجل، ويكفي في ذلك وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم بالمرأة في خطبة الوداع حين قال: " استوصوا بالنساء خيراً"، وقال صلى الله عليه وسلم: " ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم، ولا يجوز علمياً ولا منهجياً حمل أخطاء المسلمين على الإسلام فكم من المبادئ الراقية شوهت معالمها على يد الأتباع عند التطبيق.

المشروع الإسلامى

تمهيد:

يختلف بالضرورة المنطلق الذى يصدر عنه الإسلاميون فى مفهوم التنوير وفى التاريخ له عن المنطلق العلمانى.

ذلك أن المفهوم العلمانى للتنوير كما سبق توضيحه مفهوم غربى استشراقى فى وسائله ومقاصده، أما مفهوم التنوير فى المشروع الإسلامى فهو ينطلق من الركائز الأساسية لأى حركة تنويرية أو نهضوية كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق.

فعلى المستوى الثقافى كان منطلقهم، العلم وسيلة وغاية، والعقل لغة وإدراكاً.

وعلى المستوى الاجتماعى: كانت الحرية فريضة دينية وكان مبدأ المساواة شعيرة من شعائر الإسلام.

وعلى المستوى السياسى: كان مبدأ العدل أساساً لنظام الحكم ووسيلة لأداء الحقوق وقضاء الأمانات، وكان نظام الشورى وسيلة ومسلكاً لإقرار مبدأ العدل بين الرعية.

وهذه المرتكزات الأساسية يعتبرها الإسلام واجبات دينية، وأسساً اجتماعية، وفرائض سياسية، يتعلق بها استقرار الحكم، وحسن

سياسة الأمة، وإهمالها أو الاعتداء على واحد منها يحدث بـالضرورة خللاً فى النظام العام للبنية الاجتماعية للأمة.

ومن الجدير بالذكر أن مفهوم التنوير فى هذا المشروع الإسلامى يفتح الأبواب على مصراعيها للحوار والأخذ عن الآخر أيا كانت ديانته وثقافته وحضارته، يأخذ عنه النافع والمفيد من كل فن وعلم، ويجعل ذلك فريضة إسلامية وواجبات دينية عليه أن يأخذ بها، لأن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها كان أحق بها. وينفتح على الغرب لينهل من علمه ومعارفه ما يساعده على التقدم ويحقق له أهدافه وغاياته، وليس صحيحاً ما يروجه العلمانيون أن الاتصال بالغرب أو الأخذ عنه أو الحوار معه أمر محرم شرعاً عند الإسلاميين، أو هو مرفوض عندهم إن هذا محض افتراء ومن باب التلوث الثقافى الذى سمم الأجواء العقلية والفكرية فى بلادنا.

إن التنوير ينبغى أن يكون إسلامياً فى أصوله ومنابعه، فى وسائله ومناهجه، فى أهدافه ومقاصده، وهذا المنهج التنويرى يفتح أبوابه للنافع والمفيد من كل أمة شرقية كانت أو غربية كما سبق، هذا من ناحية مفهوم التنوير.

أما الأمر الآخر الذى يذهب إليه الإسلاميون فهو رفض التأريخ للنهضة المصرية بالحملة الفرنسية، إنهم يعترفون بدورها فى

بعث الإحساس بالحاجة إلى المزيد والمزيد من العلم والمعاريف الغربية.

لكن لا ينبغى أن نفهم أن أبناء مصر كانوا قبل هذه الحملة فى عماء وجهالة، حتى جاء نابليون فأبصرهم بعد عمى، أو هداهم بعد جهالة، لا، فإن ذلك لم يكن هدفاً من أهداف حملة نابليون. حتى وإن أقسم الاستشراق على ذلك، لم يأت نابليون ليوقظ مصر من سباتها، أو ليبعث فيها النهضة أو .. أو .. كما يروج لذلك المستشرقون ويتابعهم فى ذلك العلمانيون، ومن يصدق هذه الأكذوبة فقد فاته الوعى بالتاريخ وإدراك أحداثه، نعم كان للحملة الفرنسية آثارها الثقافية فى الكشف عن حجر رشيد وكان للمطبعة التى جلبها نابليون دورها، هذا أمر لا ينبغى أن ينكر أثره، لكن أن يكون ذلك بداية للنهضة المصرية. فهذا أمر ينبغى التحفظ فى قبوله. أو أن نابليون جاء لينهض بالشرق فهذا تزييف للتاريخ.

إن العالم الإسلامى قد أدرك مفكروه أنهم فى حاجة إلى يقظة تخرجهم مما هم فيه من ركود، ولقد ظهرت بواكير هذه اليقظة فى وقت مبكر قبل الحملة الفرنسية، بل إنهم يرون أن الحملة الفرنسية قد عملت على إجهاض هذه اليقظة ووأدها فى مهدها خاصة أن الغرب

كله كـــان إبان هذه الفترة متربصاً بالخلافة العثمانيـــة، يعـــد العـــدة للانقضاض عليها. والتاريخ والواقع ربما أكدا هذه الحقيقة.

فمن ناحية نجد أن بواكير النهضة قد بدت ملامحـــها بظـــهور المطبعة فى عاصمة الخلافة بالآستانة منذ عام ١٧٢٨م.

ومن جانب آخر وجدنا الثورات الإصلاحية قد انتشـــرت فـــى أرجاء العالم الإسلامى شرقاً وغرباً بهـــــدف الإصـــلاح السياســـى والاجتماعى والدينى والنهضة العلمية، والذى يقـــرأ تـــاريخ الشـــرق الإسلامى إبان القرن السابع عشر ــ وهو بدايـــة عصـــر النهضـــة الأوروبية ــ سوف يتأكد له أن بواكير النهضة قد بدأت فى الشـــرق فى هذه الفترة المبكرة، وكانت هذه البداية متزامنة مع بداية النهضـــة الأوروبية مع اختلاف الوسائل والمناهج والمقاصد. وهذا أمر لابد أن يكون واضحاً وفى الحساب، حتى لاتتوه معالم الأمور أمام الشباب.

ففى الهند شرقاً ظهرت حركة أحمد شاه ولى الله ســـنة ١٧٠٢ ــ ١٧٦٢ ليعلن حربه على الاستعمار الإنجليزى، كما ظـــهر بعـــده أحمد خان ١٨١٧ــ ١٨٩٨م وفى وسط الجزيرة العربيـــة ظـــهرت دعوة الشيخ محمد بن عبـــد الوهـــاب(١٧٠٣ ــ ١٧٩١) لتصحيـــح عقائد الناس ويقضى على الجهل والخرافات.

كما ظهر فى إفريقيا عثمان دان فوديو(١٧٥٤ ــ ١٨٩١).

وفى السودان ظهرت الثورة المهدية ووقفت فى وجه الاستعمار الإنجليزى.

وفى ليبيا ظهرت الحركة السنوسية، وفى مطلع القرن العشرين كانت دعوة جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى مصر وابن باديس وعبد القادر الجزائرى فى شمال افريقيا والكواكبى فى الشام وكلها دعوات إصلاحية نهوضية تنويرية .

وينبغى أن نعيد قراءة التاريخ الحديث، لكن بعين عربية إسلامية كما سبق أن أشرنا وليس بعين المستشرقين الغربية، ينبغى أن نقرأ موقف الغرب من هذه الحركات الإصلاحية، ونتأمل كيف تآمر الغرب على وأد هذه الثورات وأن نتعرف على وسائله فى محاربتها.

لقد كانت القرون الثلاثة الأخيرة تمثل حدة الصراع الحضارى بين الشرق والغرب، وكان الغرب قد دخل عصر الصناعة، وقفز فى ذلك قفزات هائلة، فسخر كل وسائله للسطو على مقدرات العالم الإسلامى والقضاء على هذه الثورات، وشاع بين دول أوروبا مصطلح " الخطر الإسلامى" تعبيراً عما أحسه الغرب من بواكير نهضة الشرق التى ينبغى أن يقضى عليها وألا يسمح لها بأن تمارس دورها فى حركة التاريخ.

إن ظهور مصطلح الخطر الإسلامى فى الغرب أمر له دلالتــه التاريخية فى التربص بالشرق وحضارته، وإعداد العدة لمجابهة هــذا الخطر والقضاء عليه، إننا إذا استطعنا أن نتجرد مــن آثــار قــراءة المستشرقين لتاريخنا وقرأنا بعين العربى المســلم تــاريخ المنطقــة العربية فى بداية القرن السابع عشر وهو تقريباً بداية عصر النهضــة الأوروبية ـ نجد أن أبناء المنطقة النابهين فى كل قطر قد خالجــهم الإحساس بضرورة التغييروالبدء فى نهضة علمية تواكب مــا بدأتــه أوروبا وتسير معها جنباً إلى جنب.

فلقد أحس النابهون من أبناء كل قطر عربى بنوع من الخلــل فى مسيرة العلوم، وأن هناك اهتماماً ملحوظاً بالعلوم النظرية أو التــى تسمى بالعلوم الإنسانية على حساب العلوم العلمية الكونية، ولابد مــن تدارك هذا الخلل ومن هنا قامت مجموعة من العلماء يعملون علــى ترشيد مسيرة العلم، وإيقاظ الهمم نحو النهوض بخطى وئيده.

وإذا تأملنا مقاصد هؤلاء الأعلام وأهدافهم نجد أنها لــم تكــن قاصرة على الإحياء اللغوى والأدبى فقط، كما لم تكن قاصرة علــى الإحياء الدينى والعودة الصحيحة إلى مصادره الأولى الصافيــة مــن كل تأويل، بل بالإضافة إلى ذلك كله كانت مقــاصدهم تتجــه نحــو النهضة العلمية بالمعنى المعروف، فإن شخصية مثل الجبرتى الكبــير

والد الجبرتى المؤرخ بالإضافة إلى كونه فقيهاً حنفياً عالمـــاً باللغـة والكلام، كان أيضاً إماماً فى العلوم الأخرى، فبعد أن تصدر للإفتـــاء ولى وجهه نحو تحصيل هذه العلوم الكونية وانقطع لـــها مـن سـنة ١٧٣١م فجمع كتبها وقضى فى تحصيلها عشر سـنوات (١١٤٤ ـ ١١٥٥هـ) حتى ملك ناصيتها وبرز فيها، فى الهندسة، والكيميـــاء، والفلك ، والصنائع الحضارية، حتى النجـــارة والحـدادة والسـباكة والخراطة والسمكرة والتجليد والنقش والموازين، وأصبح بيته زاخـواً بأدوات الصناعة ومقصداً لكل طلاب هذه الفنون، حتى إنه علم خدمـه فى بيته كل هذه الصناعات، يقول الجبرتى المؤرخ عـــن أبيــه: [1] وحضر إليه طلاب من الإفرنج وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك فــى سنة ١١٥٩ هـ ١٧٤٦م وأهدوا إليه من صنائعـــهم أشـياء نفيسـة، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت، وأخرجـــوه مـن القوة إلى الفعل، واستخرجوا الصنائع البديعة مثل طواحين الـــهواء وجـر الأثقال واستنباط المياه.

ويقول الشيخ محمود شاكر معلقاً على هذه الفقرة مـن تـاريخ الجبرتى: ولاشك أن هؤلاء الإفرنج هم المستشرقون الذيـــن سـبقوا

(١) راجع رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا: محمود شاكر، طـ دار الهلال

حملة نابليون على مصر، وكانوا عيونه عليها ومستشاريه بها، وكان هؤلاء المستشرقون هم عيون الاستعمار وجواسيسه، والمخططون له لكى يجهز على هذه الحركات فى مهدها حتى لا تنهض البلاد. لأن الاستعمار مازال ماثلاً فى ذهنه سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح، الذى فتح أبواب أوروبا المسيحية أمام المد الإسلامى، وهؤلاء يعملون جاهدين على تقليم أظافر الخلافة وتقطيع أوصالها فى الأطراف وفى القلب على سواء.[1]

ولذلك فقد تآمرت أوروبا كلها شرقاً وغرباً على وأد هذه الحركات قبل أن تنهض، وتفتيت وحدة الخلافة العثمانية، وعقدوا من أجل ذلك المؤتمرات والندوات، ووضعوا مائة مشروع أوروبى للقضاء على الخلافة العثمانية ووأد هذه الحركات النهضوية، لقد لفت أمير البيان العربى شكيب أرسلان أنظار المسلمين إلى هذه المؤامرات الأوروبية فى تعليقاته على كتاب " حاضر العالم الإسلامى " لمؤلفه الأمريكى لوثروب استوادرد، فكتب بحثاً مستقلاً عن هذه المؤامرات بعنوان" مائة مشروع لتقسيم تركيا الإسلامية" ولعل تاريخ القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هو الوعاء الزمنى لتنفيذ هذه

---

(١) راجع المصدر السابق.

المؤامرات بحيث جاء القرن العشرون والعالم الإسلامى كله واقع فى قبضة الاستعمار شرقاً وغرباً، ولم يمض الربع الأول من هذا القرن إلا وقد شهد سقوط الخلافة رسمياً سنة ١٩٢٤م تنفيذ لهذه المخططات.

ومن الإنصاف أن نقارن بين المنطقة العربية وأوروبا فى بداية عصر النهضة لنجد التقارب واضحاً بين المنطقتين، والسبق الأوروبى كان من السهل جداً اللحاق به، كما يقول الأستاذ محمود شاكر لولا سياسة أوروبا تجاه هذه المنطقة، لولا السطو المسلح على خيراتها ونهب كنوزها، وسرقة خزائن الكتب والعلم فيها، والفارق بين النهضتين يومئذ هو أن يقظة العالم الإسلامى كانت هادئة سليمة الطوية انبعاثها ذاتى، مقاصدها نبيلة، أهدافها أخلاقية، هو تحقيق سعادة البشرية فى حدود تعاليم الإسلام، فكانت طبيعية فى مسيرتها غير متوجسة ولا متربصة بأحد من أهل الأرض، أما يقظة الغرب فكانت أشبه بالقفز الأعرج الخائف، متفجرة بحقد دفين من آثار فتح أوروبا أمام الإسلام على يد محمد الفاتح. مقاصدهم الفتك والسطو على أطراف هذه الخلافة واستئصالها، والضرب فى القلب والمقتل فى دار الإسلام، بالمدفع والقنبلة إن تيسر، وبالدهاء والمكر والخداع إن كان ذلك مطلوباً، وأثبت التاريخ وصدق الواقع صحة ما نقول به، كان الثأر والفتك مقصداً وغاية، لذلك كانت بدايتهم النهضوية تركز على تصنيع الأسلحة الفتاكة التى تحقق لهم غايتهم من اليقظة التى بدأوها.

نعم لقد كانت يقظة العلماء فى الشرق بشيراً بنهضة حقيقية كاملة، وإحياء صحيحا لماض تليد، وانطلاقاً صادقاً نحو مستقبل مأمول، لولا ما كان من موقف الغرب من العالم الإسلامى، لقد اجتمعت كلمة أوروبا رغم ما بينها من خلافات ــ على تمزيق أطراف العالم الإسلامى واستنزاف خيراته، وبدأوا هذه المؤامرة بالهند البعيدة عن مركز الخلافة، وكانت شركة الهند البريطانية طليعة هذه المأساة، ثم بدأ الصراع بين فرنسا وانجلترا على الاستيلاء على خيرات العالم العربى، وتفصيل القول فى ذلك له مكان آخر. لكن هنا أمور أحب أن أضعها أمام القارئ الكريم.

إن كنوز العرب والمسلمين العلمية والأدبية والتاريخية قد سطا عليها المستعمر، وكان ذلك من أول أهدافه ومن أهم مقاصده ــ والذى يزور المتحف البريطانى ومكتبات فرنسا ويحصى ما فيها من الآثار العلمية الإسلامية لابد له أن يتساءل. لماذا ركزت الحملة الفرنسية فى مصر على سلب هذه الكنوز ونقلها إلى بلادهم؟

لماذا دأب نابليون منذ دخوله القاهرة غازياً على قتل خمسة أو ستة من خيرة علماء مصر كل يوم وتعليق رؤوسهم على الرماح والطواف بها فى شوارع القاهرة؟

لماذا حرص على اقتحام الأزهر بخيوله بالذات مع أن هناك مساجد تهفو إليها قلوب العوام من الناس كمسجد الحسين والسيدة زينب وغيرها؟

ومما يلفت النظر ويثير العجب ما جاء فى شروط الصلح للجلاء عن القاهرة، فقد نصت الشروط التى وضعها نابليون على ما يلى:

- إن الفرنسيين" يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبهم التى اشتروها من مصر، وما يلفت النظر أيضا أن نابليون بعد أن دخل مصر أصدر قرارات من الحكومة فى ١٧٩٨/٦/١٦م يطلب إلى وزير الداخلية أن يضع تحت تصرف نابليون بونابرت المهندسين والفنانين وغيرهم من أعضاء الهيئات التى تخضع لإشراف وزارة الداخلية وكذلك الأشياء التى يريدها لحملته.

والجبرتى المؤرخ يسجل لنا فى تأريخه لهذه الحملة وثائق تحتاج إلى إعادة قراءتها بعين مصرية لا بعين فرنسية، حتى ينصف المصريون أنفسهم وينصفوا التاريخ معهم.

لقد استطاعت الحملة أن تجمع علماء مصر فى كل فروع المعرفة وتجندهم إجبارياً تحت إمرة الحملة الفرنسية، ينهلون من معارفهم ويقفون على علومهم، وخصصوا لهم مكاناً محدداً أشبه بالمعسكر الإجبارى الذى يجتمع فيه الجنود تحت إمرة قائدهم، ويقول الجبرتى " وأفردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم والرياضة كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين: حارة الناصرية" ليجتمعوا فيها ويكونوا تحت طلب الحملة وقوادها يستشيرونهم ويتعلمون منهم واتخذوا دار حسن كاشف جركسى مقراً لهم وقد وصف الجبرتى ما وجده عندهم

من الكتب الإسلامية الكثيرة التى شاهدها مترجمة بلغتهم، يقول: رأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض ويعبرون عنه بقولهم شفاء شريف، كما وجد عندهم بردة البوصيرى وترجموها إلى الفرنسية وغير ذلك من الفنون اللغوية والأدبية [1].

والغريب حقاً أن بعض الباحثين يقرأ ذلك النص عند الجبرتى ويحاول أن يفسر ذلك بأن الحملة الفرنسية قد أحضرت هذه الكتب معها من باريس لكى تنشرما فيها من علم تنويرى بين أبناء مصر ولذلك جمعوا لها العلماء والأدباء. أرأيت أكثر من هذا مثيراً للعجب. وهل أبناء مصر كانوا يجهلون هذه الكتب حتى يتعلموها من الحملة الفرنسية؟ أليس الأكثر قبولاً فى العقل أن يقال العكس، إن هذه الكتب التى جمعوها هى الكتب التى سرقوها من مكتبة الجبرتى الكبير وكلها كتب علمية عن الآثار والتراث المصرى القديم، ومن المثير للدهشة إصرار الحملة الفرنسية الشديد على تجريد القاهرة من كل مصادر المعرفة والعلم. أليس ذلك أمراً مثيراً للعجب حقاً؟ إن هناك عيناً أخرى تقرأ تاريخ العلاقة بين الاستعمار والمسلمين، وهى تختلف فى قراءتها للتاريخ وتفسيرها لأحداثه عن تلك العين الاستشراقية التى قرأت تاريخنا وفسرته تفسيراً هوائياً لتجعل الشرق موطناً طبيعياً للتأخر، ولتجعل الحملة الفرنسية منطلقاً لحضارة مصر

---

[1] عجائب الآثار ٣٥١٣ط مصر ١٣٢٢هـ، راجع رسالة فى الطريق الى ثقافتنا كتاب محمود عبده ص١.

الحديثة. ومن المؤسف أن يتابعها فى هذا التفسير تلاميذ الاستشـراق فى العالم العربى[1].

إن هناك قرائتين لتاريخ العالم العربى المعاصر:

قراءة علمانية غربية استشراقية أورثها الاستشـراق لتلاميـذه من بعده. وهذه القراءة يمثلها رينان الفيلسوف الفرنسى، وورثها عنه الكثير من العلمانيين فى بلادنا وتتلخص هذه القراءة فى أن أسـباب تأخر المسلمين هو الإسلام. وما يعتنقه المسلمون من قيم إسـلامية، وما يدينون به من عقائد غيبية، ولقد جسد رينان رأى أصحاب هـذه القراءة الاستشراقية فى محاضرة ألقاها بجامعة السـوربون فـى ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣م وتحدث فيها عن علاقة الإسلام بالعلم والـروح العلمية[2] وكانت هذه المحاضرة مملوءة بالاتهامات بالنسبة للإسـلام كدين وعقيدة وبالنسبة للبلاد التى تدين به وأن كل ما فعلـه الإسـلام بأهله كان هو التأخر الحضارى ومحاربة العلم، وهـذه القـراءة قـد انتقلت كما قلنا ــ إلى كثير من المشتغلين بالثقافة، وأخذوا يدندنـون حولها ويطالبون ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، بالتخلص مـن الإسـلام لكى تنهض بلاد الشرق كما نهضت أوروبا.

---

(١) راجع رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا محمود شاكر

(٢) راجع الإسلام المعاصر د/ على مراد ترجمة محمود على مراد، ص ٦١ طـ الهيئة المصريـة العامة للكتاب، والمؤلف أستاذ بالسوربون.

أما القراءة الثانية:

فيرى أصحابها أن العالم الإسلامى كان يسير فى اتجاه التطور الطبيعى نحو منطق العصر، لغة وحضارة، وثقافة، وعلماً، كان يسير بخطى هادئة غير متشنجة، فى كل فروع المعرفة الإنسانية، وأثمرت جهود أبنائه وأفاد من جهودهم معظم بلاد العالم شرقاً وغرباً، ومنذ فتح القسطنطينية ودخول الإسلام إلى قلب أوروبا أحس الغرب بالفزع الأكبر من هول تلك الفاجعة، وبدأ الحديث فى أرجاء أوروبا عما يسمونه " الخطر الإسلامى" وبدأ من هذا التاريخ يعد العدة للإجهاز على قلب العالم الإسلامى وتمزيق أطرافه، وكان جل اهتمامه العلمى موجهاً لتصنيع السلاح وتقنيته بهدف القضاء على العالم الإسلامى ومحو آثار هذا الخطر. ولذلك كان تقدم الغرب مرتبطاً بتصنيع آلات الدمار والفتك أكثر منه بتصنيع الحضارة وأساليب التحضر، وبدأ المهتمون بإصلاح حال المسلمين يشغلون أنفسهم بالبحث حول هذه القضية. علاقة الغرب بالشرق، وأسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم وأخذوا يتساءلون عن هذه الأسباب. هل حقاً أن سبب تأخر المسلمين هو تمسك المسلمين بدينهم..؟ هل هى أسباب ذاتية فى طبيعة الدين الإسلامى. أو فى طبيعة المسلم..؟

وبدأ جمهور المصلحين فى العالم الإسلامى كل منهم يدلى بدلوه فى البحث عن أسباب تأخر المسلمين. فألف شكيب أرسلان كتابه" لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. ونحا فيه منحى الرد

على مزاعم المستشرقين من جانب، وتحليل بعض مظاهر الخطأ فـــى تصوير المسلمين للإسلام من جانب آخر، وألف الكواكبى كتابيـــه " أم القرى" و"طبائع الاستبداد".

كما شغل ابن باديس نفسه فى الجزائر بتحليل نفس الظـــاهرة، وفى مصر كان جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده مـــهتمين بـــالرد على دعاوى المستشرقين خاصة رينان، والعمل علـــى إيقـــاظ همـــم المسلمين وإحياء الفهم الصحيح للإسلام، فوضع جمال الدين رســـالته، فى الرد على الدهريين وألف محمد عبده رسالته فى " التوحيد" وكتابه عن الإسلام والعلم والمدنية بالإضافة إلى كثير من المقـــالات التـــى نشرها فى "العروة الوثقى" وما زال السؤال قائماً حتـــى الآن، لمـــاذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟

لقد احتفظ الإسلام حتى القرن السادس عشر بالتفوق والتقـــدم فى كثير من العلوم المختلفة، وظل الإسلام خلال هذه الفترة محتفظـــاً بقوته العسكرية، فقد كان البحر الأبيض المتوسط يطلقون عليه فـــى الغرب البحيرة الإسلامية. حيث كان يمتد النفوذ الإسلامى من البحـــر الأسود شمالاً حتى سواحل افريقيا جنوباً وبوغاز جبل طارق غربـــاً، والقراءة الإسلامية لتاريخ هذه الفترة تلقى كثيراً من التبعة والمسئولية فى تدهور المستوى الحضارى للعالم الإسلامى على الغرب وعلاقتـــه العدائية والحاقدة على الشرق. ومنذ فتح القســـطنطينية ســـنة ١٤٥٣ وغزو المجر سنة ١٥٢٦م والهجوم الأخير نحو فيينا عاصمة النمســـا فى صيف عام ١٦٨٣ انتهت مرحلة المد الإســـلامى لتبـــدأ مرحلـــة

الجذر والتراجع بفعل عوامل كثيرة، لكن كان أهمها بالقطع هو اتحاد دول أوروبا كاملة لمواجهة هذا الخطر الإسلامي بشتى الأساليب وانطلقت الكشوف العلمية نحو خدمة تسليح الجيوش الأوروبية للسيطرة على الشرق لقد بدأت القراءة الإسلامية لتاريخ المنطقة من هذه المنطلقات:

١ إحساس أوروبا بخطر الإسلام.

٢ مواجهة هذا الخطر بما تملك من وسائل عسكرية ـ سياسية اقتصادية.

٣ العمل على تفتيت القوة الإسلامية المتمثلة في الخلافة العثمانية وتقطيع أطرافها إن بالكيد والمكر، وإن بالإغراء والوعود، وإن بالدبابة والمدفع.

٤ ولم تهمل هذه القراءة ما آلت إليه أحوال المسلمين من ضعف كان سببه من وجهة نظرهم حالة الترهل في جسم الأمة الإسلامية وغياب الإحساس بما يبيته الغرب له.

٥ أضف إلى ذلك اهتمام المسلمين بالعلوم الشرعية وإهمالهم للعلوم الطبيعية التي يتعاملون بها مع الكون (علوم الطبيعة ـ الكيمياء ـ الرياضة ـ الهندسة) وهي التي قفز بها الغرب قفزات هائلة أذهلت الشرق في أول اتصاله بالغرب مما جعل نوعاً من الإحساس باليأس يتسرب إلى نفوس العامة، حتى سادت روح التواكل أو كادت. وهذا ما جعل المصلحين يركزون جهودهم على إيقاظ الهمم لتدارك ما فات، بمنطق العلم والعقل

فى ثقافة الأمة، والحرية والمساواة فى الحياة الاجتماعية، والعـدل والشورى فى نظام الحكم، كل هذا من منظور الإســلام وتحـت حراسته، ليكون الاعتقاد الصحيح محركاً للأمة بتطبيــق هــذه الركائز، والمحافظة عليها باعتبارها ركائز عقائدية أولاً، ومناهج إصلاحية ثانياً.

مدرسة الإصلاح فى مصر

أ- الأفغانى:

وجه المصلحون فى مصر اهتمامهم نحو الرد على افـتراءات المستشرقين على الإسلام وإزالة الشبهات التـى يثيرونـها حولـه. وحـاولوا أن يوضحوا للعامة والخاصة أن هجمة المستشرقين علـى الإسلام إنما هى جزء من مخطط استعمارى كبير، يقصد به تفريـغ المسلم أولاً من الولاء لعقيدته وتشكيكه فيها بدعـوى إنها سبب فـى تأخر الشرق، لكى يصبح العقل والقلب، صالحاً لتقبل ما يلقى عليـه من أفكار يروج لها الاستشراق فى العـالم، وليتقبـل عنـهم مزاعمـهم وآراءهم حول الإسلام وأنه من أسباب تأخر المسلمين، وعن الغرب وأسباب تقدمه. وأهمها أن الغرب لم يتقدم إلا بعد أن تخلص من الأديان. كـان هـذا أخطر مافى هذه الحملة الاستشراقية فى مطلع هذا القرن.

فبدأ جمال الدين الأفغانى بكتابه " الرد على الدهريين وكتـب محمد عبده عن " الإسلام والمدنية"، وحاول الأفغانى فى منهجـه أن يحلل واقع المجتمعات المتدينة وما تتمسك به من قيم ومبادئ، وأثـر ذلك فى النهوض بالمجتمع، وأن يقارن بين واقع هـذه المجتمعـات المتدينة والمجتمعات الأخرى اللادينية، وما يحكمها من غرائز البقـاء فيها للأقوياء، شأن الحيوان فى الغابات.

إن المجتمع المتدين يتميز بسمات أخلاقيـة على مستوى الفرد والجماعة لا توجد فى المجتمع اللاديني، ذلك أن الإيمـان بالأديان يجعل صاحبها ذا هدف سام ينشده وغاية نبيلة أخلاقية يسعى إليـها، والتزام بها، من اعتقاده بالله واليوم الآخر. وركز فى هـذا الجـانب على ثلاثة أمور أكسبها الدين لأبنائه بينما افتقدها الملحدون عموماً.

أولاً : إن الدين يجعل المتدين سيد عالمه، إنـه ملـك يمشـى علـى الأرض وهو أشرف خلق الله فى ملك الله، فلقد كرمه الله فـى كتابه الكريم بالخبر الصادق فى قوله .. ﴿**ولقد كرمنا بـنى آدم**﴾.. واستخلفه الله فى هـذا الكـون لإعمـاره وتسـخيره لمصالحه، والإنسان المتدين هو الوحيد الـذى يشـعر بـهذا التكريم الإلهى، والإنسان المتدين هو الوحيد الذى ينبغـى أن يتصرف فى الكون من هذا المنطلق، إنه سيد الكون. إن الكون مسخر لخدمته، إنه مسئول عن إعمار الكون وإحيائه، ويدفعـه الاعتقاد الدينى إلى الشعور بالتقصير والتعرض للحسـاب إن هو أهمل الأخذ بهذه الأسباب أو قصر فيها.

ثانياً: إحساس المتدين بأن أمته أشرف الأمـم وأعرقـها، وأكثرهـا حرصاً على إعمار الكون والإفادة منه، وإن غيره فـى غـى وضلال، ومن واقع إحساسه بهذين الأمرين عليه أن يتحمـل مسئولية كبرى نحو غيره من الأمم والأفراد، إنـها مسـئولية

الدعوة إلى دينه والهداية إليه، إنها مسئولية إعمار الكون والإفادة به.

ثالثاً : إيمان المتدين بأن هذه الحياة ليست غاية فى ذاتها وإنما هى طريق يجتازه الإنسان إلى العالم الآخر، إنه ورد إلى هذه الحياة لتحصيل الكمالات الأخلاقية الدينية التى تؤهله للعروج إلى عالم أفضل وأوسع من هذا العالم، إنه إذن كالمقدمة التى يجب أن يحسن المرء ترتيب مفرداتها ويحسن توظيفها ليحصل على النتائج المطلوبة، إن إيمان الفرد والمجتمع بهذه الأمور الثلاثة تجعله يتأبى على الدنايا من الأفعال والرذائل، ويترفع عن انتهاك محارم الأخلاق أو التدنى فى السلوك، فيصير المجتمع فى نهايته مدينة فاضلة وتلك نهاية السعادة، هذا الاعتقاد هو الزاجر الوحيد للإنسان عن افتراس حقوق الآخرين، وأشد مانع له عن ممارسة الرذائل. وإلا فحدثنى بربك ما أكثرها القوانين وما أشد أنواع الرقابات وتنوعها على اللصوص ومقترفى الرذائل، ومع ذلك فما أكثر الجرائم وأشدها فتكاً بالإنسان، وإن شئت فارم بنظرك إلى قوم لا يعتقدون فى أى دين ويرون أن الإنسان حيوان كسائر الحيوانات، أو متطور عن نوع منهم كما يرى الملحدون، ثم انظر ماذا يفعلون ببنى الإنسان، إن هذا الاعتقاد كما يرى الأفغانى هو أبلغ قائد إلى طريق العلا ومقامات الشرف، فكيف

يقول المستشرقون إن تمسك الشرق بالإسلام هو سبب تأخرهم، إن اعتقاد المتدين فى ربه وفى اليوم الآخر يورثه خصالاً هى عمدة السلوك الحضارى وأسسه وأهم هذه الخصال:

١ فضيلة الحياء

هى التى تتولد فى النفس عن مراقبة الإنسان لربه، الذى يعتقد بمعيته فى كل وقت، حتى وإن غاب عنه الناس، فهو رقيبه فى غيبة الآخرين، وصفة الحياء يلازمها شرف النفس، وهى عمدة السلوك فى الترفع عن كل رذيلة. وكل مجتمع فقد صفة الحياء فقد فاته من أساسيات السلوك الحضارى الكثير والكثير، ولأن هذا مما تدور عليه معاملات الناس وعلاقتهم بالآخرين.

٢ الأمانة:

وهى ركيزة التعامل بين الناس وروح المعاملة والمعارضة، فإن ضاعت الأمانة فى مجتمع ما فقد فسدت روح المعاملات واختل نظام المعيشة، إذا تطرق هذا الخلل إلى المسئولين بأن ضاعت الأمانة بينهم، فقد اختل الهيكل الأساسى للحكومة التى تدير شئون الدولة وهذا أول باب الخلل الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وبداية انهيار الأمم وسقوط نظامها فى أعين الرعية، ولابد أن يئول أمرها إلى الانقراض والفناء، لأن سقوط هذه الخصال بين

المتحاكمين فيه معاندة للعدل ومعارضة للحقوق، وهما قطب الرحى في بناء أو انهيار الأمم وسقوط الحكومات.

٣ الصدق:

الذى هو صنو الأمانة ووليد الحياء، وهذه الأمور الثلاثة لاغنى عنها لمجتمع إذا ما أراد أن ينهض. كلها محروسة فى الإسلام بالأوامر الإلهية والأحاديث النبوية، ومرعية فى مجتمع المسلمين بالاعتقاد القوى الجازم.

إن الأفغانى هنا يبرئ الإسلام من تهمة المستشرقين له بأنه سبب فى تأخر المسلمين، ليعود باللوم على المسلمين أنفسهم، وبما تفشى بينهم من خرافات وأباطيل وبعد عن الدين.

لقد تحدث الأفغانى عن الإسلام فقال: إنه فى مقدمة الأديان السماوية التى نزلت لإسعاد البشر، لأنه يفضل الأديان الأخرى فى كثير من الأمور. أنه يصقل العقل بصقال التوحيد، يطهر الاعتقاد من رجس الأوثان بشرية كانت أو غيرها كما يعتقد الآخرون، إن الإسلام محى كلية جرثومة التعصب والتفرقة بين الأجناس، لأن قاعدته الأساسية فى المفاضلة " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " ثم إن قاعدته فى الاعتقاد هو الإقناع والبرهان وليس التبعية والتقليد، ولذلك فإن دعوة الأفغانى الإصلاحية وإن بدت فى ظاهرها دعوة سياسية، إلا أن

مضمونها وجوهرها هو الإصلاح الدينى الذى لخصه فـــى عبارتــه المحددة" .. أرجو أن يكون سلطان جميعهم ــ جميـــع المســلمين ــ القــرآن ووجهة وحدتهم الدين "، إن علة تأخر المسلمين عنده ترجــع إلى التساهل فى تطبيق تعاليم الإسلام، اجتماعيا، وعلمياً، وأخلاقيـــاً، فإن الأصول الدينية الحقة المبرأة من الابتداع والاختلافـــات تنشـــئ الأمم، وتقيم الحضارات، وللأسف الشديد، فإن المسلمين قد اكتفوا من الإسلام باسمه ورسمه، دون مضمونه وروحه، إن القـــرآن حـــى لا يموت، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود، إن الأفغانى ينــادى فى العالم الإسلامى هاكم " كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه، وحكمـــوه فى أفعالكم وأحوالكم وطباعكم، وما الله بغافل عما تعملون".

إنه يصحح للعامة والخاصة فهمهم الخاطئ للإسلام، واعتقادهم فيه، حين يقول: " إن حركتنا الدينية بالدعوة إلى القرآن ــ كناية عـــن الاهتمام بقلع ما رسخ فى أذهان وعقول العوام ومعظم الخواص مـــن فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية علـــى غـــير وجهـــها الصحيح، مثل فهمهم نصوص القضاء والقدر على معنــــى أنـــهم لا يتحركون إلى طلب المعالى والمحامد، ويركنون إلى الدعة والخمــول .. إنه لابد من بعث القرآن ليحى هذه النفوس، وليصحح هذه العقــائد، فلقد سعد بالإسلام سلفنا وسادوا، فلماذا نشقى به ونستعبد؟

إنه ينعى على المسلمين تخلفهم، ودينهم يدعو إلى التقدم.

إنه ينعى على المسلمين تفرقهم، ودينهم يدعو إلى الوحدة.

إنه ينعى على المسلمين جهلهم بعلوم الكون، ودينهم يدعو إلى العلم.

إنه ينعى على حكام المسلمين الظلم والاستبداد، ودينهم يدعو إلى العدل.

إنه يدعو العلماء إلى تصحيح عقائد الناس في دين الله ليصير القرآن حياً متحركاً لا ساكناً في النفوس، يُتلى للتبرك ويُكتب للتعاويذ فقط، ولقد أكد رشيد رضا نفس المعنى.

فكتب يقول: " لقد جفت الأقلام وخفقت الأصوات من كثرة ما كتبنا وخطبنا في موضوع شقاء المسلمين بدينهم الذي سعد به أسلافهم، وبينّا أن علة الشقاء في إيداعهم فيه لا في اتباعهم له وفي لبسه كما يلبس الفرو مقلوباً[1] .

لقد كان الإسلام والتدين الحي ركيزة المنهج الإصطلاحي لدى كل من الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وابن باديس والكواكبي وحسن البناء، بل إن من أسباب تأخر المسلمين عند هؤلاء جميعاً هو

[1] (المنار جـ٣ ص ٢٤٤) الإسلام المعاصر ص ٦٧.

عدم الفهم الصحيح للإسلام وروحه الحية الوثابة، وليس كما قال: " رينان" وتبعه فى ذلك كثير ممن تأثروا به.

ولقد جسد هؤلاء المصلحون علة تأخر المسلمين فى أمور محددة حاول كل منهم أن يعالجها بطريقته الخاصة. وأهم هذه الأسباب:

١ التخلى تدريجياً عن روح الإسلام ونقص أو انعدام الإحساس كلية بروح الإسلام، والاكتفاء منه بمظهره وشكله دون أن يعيشوا روحه ومضمونه.

٢- سوء فهم المسلمين لكثير من نصوص الإسلام، خاصة المتعلقة منها بموضوع التوكل والقضاء والقدر، مما ترتب على ذلك مواقف سلبية قاتلة تجاه كثير من القضايا الكبرى فى تاريخ المسلمين وحاضرهم.

٣ عدم الإقبال على دراسة العلوم الطبيعية وعدم الإفادة منها بنفس الهمة التى يقبلون بها على العلوم الشرعية.

٤ الرفض المطلق للغرب، ومحاولة قطع العلاقات معه بسبب موقف الغرب المعادى للإسلام والمسلمين، وخاصة فى عصر الاستعمار، وترتب على هذا الموقف النظر إلى علوم الغرب بحساسية وعداء، ولم يستطع كثير من المفكرين أن يفرق بين

العلم فى ذاته وكونه مطلباً شرعياً، وأصحاب هذا العلم حتى وإن كانوا أعداءنا.

٥ الاستبداد السياسى لأنظمة الحكم فى العالم الإسلامى، هذا الاستبداد الذى قتل فى الشعوب نخوة الرجولة وأفقد الكثير منهم الإحساس بهموم الوطن والتفكير فيها، وتحويل البلاد إلى قطعان من الأتباع لا يملكون من أمورهم إلا قولهم للسادة سمعنا وأطعنا.

٦ التفرق الذى نجح الاستعمار فى زرع أسبابه بين صفوف الأمة، فظهرت الخلافات المذهبية والعرقية والقومية ، وصار كل حزب بما لديهم فرحون، وانشغل المسلمون بهذه الخلافات التافهة وتركوا مصائر بلادهم ومستقبل حياتهم يتحكم فيها غيرهم، ويملى عليهم الاستعمار ما يشاء فصاروا كما قال الشاعر:

كم صرفتنا يد كنا نصرفها وبات يملكنا شعب ملكناه

وهذه الأسباب تختلف قوتها شدة وضعفاً من وطن إلى وطن آخر، لكنها فى مجموعها فرضت نفسها على أذهان المصلحين وشغلتهم.

كيف نقضى على أسباب الفرقة بين المسلمين؟

كيف نوحد صفوف الأمة ؟

كيف ندخل العصر من أوسع أبوابه؟

كيف نعرف الشعوب بحقوقها لدى حكامها ؟ كيف ؟ كيف؟ وما أكثرها في هذا الوقت.

لقد نادى الكواكبى فى بلاده بالشام بالدستور كنظام لتحديد علاقة الحاكم بالمحكوم، ووضع نظام عام للدولة، ونادى الأفغانى ومحمد عبده بالجامعة الإسلامية لتحل محل الخلافة العثمانية، وردد نفس النداء ابن باديس فى الجزائر، لقد كانت هذه القضايا هى الشغل الشاغل للمصلحين.

نعم لقد كان هؤلاء المصلحون جميعاً على قلب رجل واحد فى أن أسباب تأخر المسلمين متعددة ومتنوعة ومختلفة من قطر إلى قطر، إلا أن مفتاح الإصلاح لكل هذه الأسباب يكمن فى الإصلاح الدينى وإحيائه فى القلوب أولاً.

فإن صحة الاعتقاد تفرض على المسلمين طلب العلم الصحيح والأخذ بمناهجه، وصحة الاعتقاد تطلب من المؤمن محاربة الجهل والتخلف والخرافات.

وصحة الاعتقاد تطلب منهم أن يعطوا الحاكم حقه من السمع والطاعة فى غير معصية الله ويطالبوا بحقوقهم من العدل والشورى وأداء الحقوق والأمانات، ولذلك كانت قاعدتهم الأساسية التى ركز كل منهم على البدء منها قوله تعالى" ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد:١١] آمن بهذه القاعدة الأفغانى ورددها محمد عبده من بعده، وأخذ بها الكواكبى، وابن باديس، ومازلنا نقولها اليوم، الإصلاح ينبغى أن يبدأ من القواعد أولاً فهى البداية الصحيحة لكل حركة إصلاحية. قد يطول عمرها ويمتد إلى جيل أو جيلين أو أكثر لكن ذلك ليس شيئاً مذكوراً فى حركة التاريخ، نعم قد يطول عمرها إلى أن تأتى ثمرتها، لكنها إلى الخلود تسير، إن إصلاح التدين هو مفتاح طبيعى لكل حركة إصلاحية؛ لأن به إصلاح النفوس وهى مناط كل إصلاح، هكذا كان الأفغانى، وتلك كانت قضيته.

ب محمد عبده:

ويسير فى نفس الاتجاه الإمام محمد عبده ، فأخذ بنفس المنهج الذى سلكه أستاذه الأفغانى فى تفسيره لأسباب تأخر المسلمين وتقدم غيرهم، لكنه كان يرى أن أهم أسباب تأخر المسلمين يرجع إلى التقليد وترك الاجتهاد، إنه يرجع إلى ما أصاب الإنسان المسلم من جمود على تقليد الآراء دون فحص لمضمونها، وهل هو صحيح

عقلاً ونقلاً أم لا. لقد كان التقليد الأعمى للمتقدمين ديدنا وطبعاً مألوفاً لدى المشتغلين بالعلوم الدينية، دون أن يرجعوا بأنفسهم إلى الكتاب والسنة ليروا ما فيهما من علاج للمشكلات المطروحة، كان الواحد منهم يكتفى فى ذلك بما قاله شيخه، أو ما قرأه فى متن من المتون، أو حاشية من الحواشى، لذلك كان أول ما فكر فيه محمد عبده أن يعمل جاهداً على تحرير العقول من أسر التقليد للآراء، وفهم الدين فهماً صحيحاً من المصدرين الأساسيين الكتاب والسنة، كما كان على ذلك سلف الأمة قبل ظهور الخلافات المذهبية والفرق الكلامية، لقد نادى محمد عبده، كما نادى بذلك من قبل كل من الأفغانى وابن تيمية بضرورة العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله لكسب المعارف الدينية، باعتبار أن هذين المصدرين هما النبع الصافى للمعارف الدينية، التى يتآخى ويتعاون فى اكتسابها العقل مع النقل، واعتبار هذه المعارف ضمن موازين العقل باعتبار أن العقل ربيب النقل ووزيره ومعاونه.

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الإصلاحى كانت ثورته على مناهج التعليم فى الأزهر، ودعوته لإصلاح هذه المناهج، بحيث تشتمل ضمن خطتها على علوم الكون (كالطبيعة، والكيمياء، والرياضة، والفلك، والطب)، باعتبار أن ذلك مطلب شرعى يعيش به المسلم شئون عصره ولا يتخلف عن عالمه. ووضع لذلك برنامجاً

إصلاحياً متكاملاً مزج فيه بين علوم الدين وعلوم الدنيا، باعتبـــار أن تحصيل النوعين مطلب شرعي ينبغي الاهتمام بهما معاً.

وطالب في هذا البرنامج بإصلاح اللغة العربية وأساليبها سواء كـــان ذلك في المخاطبات أو المراسلات أو دواوين الحكومة.

الإصلاح السياسي والديني.

أما الأمر المهم الذي شغل حيزاً كبيراً من حياة الإمام محمـــد عبده، فهو اهتمامه بالإصلاح السياسي للدولة، وعلاقة الحاكم بالأمـــة وإدارة شئونها، لقد طالب محمد عبـــده بتحســين علاقـــة الخديـــوى بالشعب، وكما أن للحاكم حقوقاً على شعبه، فكذلك للشـــعوب حقـــوق على حكامها، ولا ينبغي أن يطالب الحكام بحقوقهم من الأمة ويذيقـــوا الشعوب الويل والثبور والإذلال وينسوا تماماً حقوق الشعب عليـــهم. يقول محمد عبده: وهناك أمر آخر كنت من دعاته، والناس جميعاً في عمى عنه، ولكنه الركن الركين الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعيـــة، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه، وذلك هـو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب مـــن حق العدالة على الحكومة، نعم كنت، ممن دعا الأمة المصرية إلـــى معرفة حقها على حاكمها، وهي لم يخطر لها هـــذا الخـــاطر علـــى البال دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وإن وجبت طاعته فهو من

البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وإنه لايرده عن خطأه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل، جهرنا بهذا القول والاستبداد فى عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد والناس كلهم عبيد له، أى عبيد.

كانت ركائز دعوته تعتمد على إصلاح الفهم الخاطئ للدين ومسائله وإصلاح اللغة، والإصلاح السياسى. وكان منهجه يختلف عن منهج أستاذه الأفغانى فى وسائل تنفيذ هذه الإصلاحات، حيث كان الأفغانى يفضل أسلوب الثورة كمنهج للتغيير، خاصة أنه كان يعانى فى بلاده من ظلم الإنجليز واستعمارهم للهند، فكانت الثورة المسلحة وسيلته المفضلة لتنفيذ منهجه فى الإصلاح. أما محمد عبده فكان يفضل أسلوب التربية والتعليم والتوسع فيها، ليتعرف الشعب على حقوقه لدى الحكومة، ويشق طريقه بالعلم نحو النهضة، لذلك كان منهجه تربوياً دينياً.

لقد رأى أن أى محاولة للإصلاح فى مصر بالذات ما لم تبدأ بالدين فهى محكوم عليها بالفشل، ذلك أن نفسية المصرى ومزاجه يرتبطان بالدين، ويتأثران به سلباً وإيجاباً، وتلك ظاهرة عامة فى مصر شملت المسلم والمسيحى على امتداد التاريخ إلى اليوم، ولقد تمسك محمد عبده بهذا المنهج فى الإصلاح وملك عليه حياته العلمية

كلها. لذلك نراه يجلس فى المساجد ليفسر القرآن بمنهج جديد، ويضع شرحاً لنهج البلاغة، وللعقائد العضدية، ويضع رسالته فى التوحيد، كل هذه نماذج وضعها ليسير عليها العلماء من بعده، لكى يتركوا التقليد ويباشروا الاجتهاد والتجديد، إن التمسك بالقرآن وإحياء تعاليمه وإقامة أحكامه كان سر تقدم المسلمين، فى الماضى المجيد، ولا حيلة فى إصلاح وضعنا الراهن إلا بالعودة إليه، لابد أن تفزع صيحته أعماق القلوب لكى تتحرك، ولابد أن تزلزل هزته رواسى الطبع لكى تتغير، ولابد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد إليه لغة العرب وطرائق تعبيرهم ليستجاب له كما استجاب له رعاة الإبل، والقرآن قريب لطالبه، متى كان عارفاً بلغة العرب وقواعدهم أيام نزول الوحى.

بمثل هذه البساطة والبعد عن التكلف كان الإمام محمد عبده يضع منهجاً جديداً فى التفسير والتجديد. ولقد اهتم محمد عبده بتجديد الفكر الإسلامى فى ضوء الرجوع إلى المصادر الأولى والينابيع الصافية خالية من خلافات المتكلمين والفقهاء، ليفسح بذلك الطريق أمام عقول المعاصرين ليجتهدوا فى تخريج مشكلات عصرهم على ضوء الفهم المناسب للقواعد الشرعية، كما فعل أسلافهم من قبل، فالسلف اجتهدوا واختلفوا فى اجتهاداتهم، وخرجوا مشكلات عصرهم

بحلول شرعية مناسبة لهم، فلماذا لا يجتهد أبناء العصر ويخرجوا مشكلاتهم بحلول شرعية مناسبة لعصرنا، بدلاً من الوقوف عند رأى فلان أجاز، وفلان منع. إن الرجوع إلى الكتاب والسنة فيه الغناء عن كل هذه الآراء.

ويرى الإمام محمد عبده أن القصور والتقصير فى التعليم الدينى كان سبباً أساسياً فى تردى الوضع الراهن الذى يعيشه المسلمون، وذلك إما بإهمال التعليم الدينى كلية، كما فى بعض البلاد، أو بالسلوك إليه من غير طريقه القويم، كما فى بعض البلدان الأخرى، أما البلاد التى أهمل فيها التعليم الدينى كلية فلم يبق فيها من الإسلام إلا اسمه ورسمه دون روحه وجوهره، كما أن فهم المسلمين قضية القضاء والقدر فهماً خاطئاً بعث فيهم روح التواكل والسلبية، وربطوا بين الإيمان بالقضاء والقدر، وكون الإنسان مجبراً فى أفعاله، مما أوقع المسلمين فى محاذير كثيرة، عاقتهم عن التقدم والعمل ومواكبة العصر، والركون إلى الراحة والدعة، لقد حاول محمد عبده تصحيح مفهوم القضاء والقدر، حتى عمل جاهداً على فك الارتباط بين الإيمان بالقدر والقول بالجبر، حتى ينطلق المسلم من قيود القول بالجبر متمتعاً بحريته التى منحها الله له فى حدود أوامر الشرع ونواهيه.

كمـــا سلك محمد عبده مسلك الأئمة الكبار الذين ســـبقوه فـــى القول بأن النص الدينى الصحيح لا يتعارض أبداً مع العقل الصريـــح، كما فعل ذلك ابن رشد وابن تيمية والأفغانى، ثم جاء محمـــــد عبـــده ليجدد المسيرة على نفس الدرب، فنصوص الكتـــاب والســـنة تـــأمر بضرورة النظر العقلى فى هذا الكون من سمائه إلى أرضه؛ لأنه آيـــة دالة على خالقه، فلابد من النفاذ إلى دقائق هـــذا الكـــون لاكتشـــاف قوانينه والوقوف على العلاقات المتبادلة بين الأسباب والمسببات فـــى ظواهره، تحصيلا لليقين ومحاربة للتقليد؛ لأن التقليد مضـــرة يعـــذر فيها الحيوان، ولا تليق أبدا بحال الإنسان.

إن النظر العقلى فى الإســـلام فريضـــة دينيـــة فلمـــاذا جمـــد المسلمون عند حدود قال فلان بالحظر، وقال فلان بالإباحة، لقد قصر المسلمون فى حق أنفسهم من ناحيتين:

الأولى ــ إهمالهم النظر فى الكون، وما يتعلق به من علوم.

الثانية   جهلهم أن ذلك تعطيل لوظيفة الكون نفسها عـــن أن تـــؤدى دورها فى حياة الإنسان، ذلك أن الكون له وظيفتان، الأولـــى أنه آية دالة على خالقه، ولهذا جاء الأمر الإلهى بالنظر فيـــه، والاعتبار بسننه وقوانينه، وبقدر ما نكتشـــف مـــن القوانيـــن الكونية ودقائق الصنعة تزداد المعرفة بالصانع.

وهذا هو دور العلوم الكونية التى أهملها المسلمون فـــى هـذا العصر مع إنها عصب النهضة وعنوانها. ومن هنا تأخرنــــا وتقـدم غيرنا، والآيات القرآنية التى تحث على النظر والاعتبار فى الكـــون أكثر من الآيات التى تأمر بالعبادات والشعائر، لكن المسلمين أهملـــوا كلية جانب النظر الكونى واكتفوا بالأوامر والشعائر.

أما الوظيفة الثانية: فهى تسخيره لصـــالح الإنســان، وقضيـة التسخير لا يملك الإنسان ناصيتها، إلا بعد التعرف على هذا الكـــون وخصائص مفرداته، والعلاقات المتبادلة بين الظواهر وأسبابها.

ولا يستطيع الإنسان أن يملك زمام هاتين الوظيفتين للكون، إلا بسلاح العلم والمعرفة، وإلى العلم فقط يرجع القول الفصل فى ذلـــك. وهو مطلب شرعى وأمر إلهى. ولعل هذا يعطينا مفتاح السر فـــى أن أول آية نزلت من القرآن أمرت بقراءة الكون. وأن تكـــون القـــراءة باسم الخالق، ليكون الرباط محكماً ووثيقاً بين الكون المخلوق والـــرب الخالق، باعتبار أن هذا الكون آية دالة على خالقه. فهذا هو شأن العلم ودوره فى رحاب الإسلام.

إن هذه المهمة أخذت من الإمام محمد عبده وقتاً وجهداً لكـــى يظهر أن الإسلام لا يحارب العلم، ولا يعارض العقـــل؛ لأن العقـل

عون المسلم على فهم الدين، والدين سراج يضيء للعقل ما ندعنه... فالدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد، لا دين تفريق فى القواعد. العقل من أشد أعوانه، والنقل من أقوى أركانه.. وما وراء ذلك نزعات شيطانية أو شهوات سلاطين "فالوحى بالرسالات نور من نور الله لهداية البشر، والعقل فى جوهره نور من نور الله مع البشر، ومحال أن يصادم النور نوراً، وإنما هو نور على نور، فكلاهما يهدى الإنسان إلى الطريق المستقيم فى الحياة والى الفوز فى الآخرة.

وإن بدا أن هناك خلافا بينهما فى مجالات التطبيق أو فى مفردات الحياة اليومية، فينبغى أن نبحث عن خطأ وقع من المسلم فى فهم النص أو فى دعوى العقل؛ لأن وظيفة الوحى تطابق وظيفة العقل؛ لأن غايتهما واحدة، ومصدرهما واحد، وهو الكامل كمالا مطلقا، ومحال أن يكون مصدرهما الكمال المطلق، ويقع بينهما تعارض، فعلينا إذن أن نبحث عن أسباب التعارض فى عقلية الباحث، وليس فى جوهر العقل بما هو عقل أو يقينية النص الصحيح.

ومحاولة بعض المشتغلين بالعلم تحريف الكتاب المنزل ليوافق مذهبا معينا أو رأى من يقلده الباحث، فإن هذا من شأنه أن يخرج الباحث عن حد الاستقامة فى طلب الحق لذات الحق. وهذا ما أشار

إليه كل من ابن رشد فى رسالته " فصل المقال" وابن تيمية فى " درء تعارض العقل والنقل" وطبقه الأفغانى فى رده على الدهريين، فالسلسلة متصلة، والطريق موصول، بين كل حركات الإحياء التى كان هدفها العودة بالمسلمين إلى أصولهم الأولى، والتخلى عن منطق المذهبية وصراع الخلافات والآراء التى تنتصر للهوى وليس للحق.

التعصب الأوروبى أم التعصب الإسلامى.

ويرى محمد عبده أن التعصب للحق ليس إلا التمسك به والمطالبة به، وليس معنى السلبية واللامبالاة إلا عدم التمسك بالحق وعدم المطالبة به؟ إن الفارق الأساسى بين الإنسان الملتزم بالقيم والمعتصم بالمبادئ، والإنسان المتحلل من كل قيمة وعقيدة هو الالتزام والتمسك بالحق والمطالبة به، وإذا كان التمسك بالحق والمطالبة به يسميه الغرب تعصبا لكى ينفر منه، فلا ينبغى أن نترك المطالبة بحقوقنا، سواء كانت شرعية أو وطنية إرضاء لأهواء الغرب منا ومطامعه فينا، أو إرضاء لمن زرعهم بين صفوفنا يرددون شعاراته دون إدراك لمقاصده منها.

إن الغرب كما يقول محمد عبده ــ أشد أمم أهل الأرض تعصبا لدينه وتعصبا لجنسه، وتعصبا لقوميته. فما بالهم يحرمون علينا ما يحللونه لأنفسهم.



وما بالهم يجعلون التعصب لهم من شيم الوطنية والتحضر والمدنية، ويجعلون تمسك صاحب كل دين بدينه أو وطنه وحقوقه تعصبا يطالبون بمقاومته وإبادته؟ هل هذا هو منطق العدل الذى يدندنون حوله، هل هذا هو حق الشعوب فى ممارسة عقائدها والتمتع بحريتها.

ثم يتساءل الإمام: هل التمسك بالإسلام والالتزام به هو الذى يصد العلماء ويمانعهم من الولوج إلى عصر المدنية والحضارة، كما يدعى هؤلاء؟ لقد زعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به من نصرتهم وتضافرهم لدفع ما يلم بهم ويلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف هو الذى يصدهم عن السير إلى كمال المدنية، ويحجبهم عن نور العلم والمعرفة، ويرمى بهم فى ظلمات الجهل، ويحملهم على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم فى دينهم، ومن رأى أولئك المثقفين أن لاسبيل إلى درء المفاسد واستكمال المصالح إلا بانحلال العصبية الدينية، ومحو أثرها بالكلية وتخليص العقول من سلطان العقائد، وكثيرا ما يرجفون بأهل الدين الإسلامى ويخوضون فى نسبة مذام التعصب إليهم، وكذب الخارصون، إن الدين أول معلم ومرشد وقائد للأنفس إلى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض لطبع الأرواح على الآداب الحسنة والأخلاق

الكريمة، ويقيمها على الاعتدال فى كل شىء، وفى كل الأحوال، فـــى الرضا والغضب، فى البغض والسخط، مع من نحب ومن نكره، مــع أبناء ملتنا، ومن لا يدن بديننا.

إن التعصب الأعمى الذى لايفرق بين ما هو حق ومــــا هــو باطل ليس له مجال فى تاريخ الإســـلام، لا علـــى مســـتوى الفكـــر والنظر، ولا على مستوى التطبيق والواقع، بـــل إن تـــاريخ معاملـــة المسلمين لغير المسلمين مسجل بأحرف من نور يحق لكل مســـلم أن يفخر به، أما الأمم الغربية التى اندفعت على بلاد المسلمين فــأحرقت الأخضر واليابس، ليس لها هدف إلا المحو والإبادة والفتك، كما فعـل الأسبان بالمسلمين واليهود فى بلاد الأندلس، وكمـــا فعـل صــاحب السلطان المسيحى، حيث جمع اليهود والمسلمين فى القدس وأحرقــهم، وهذه أمور لم يعهدها تاريخ المسلمين فى أى بلد فتحوها، ولنا الدليـــل الأقوم على ما نقول، فإن أصحاب الملل المخالفة ما زالوا يتمتعـــون بالحياة الكريمة بين أبنـــاء الملة الإسلامية، لهم ما للمسلمين وعليـــهم ما على المسلمين، كان المسلمون إذا فتحوا بلدا يحفظون على أهــــل الملل الأخرى أديانهم ومعابدهم أما الأمم الأوروبيـــة فقـــد أرغمــت المخالف لهم على تغيير دينه، وأحيانا أجبرته على تغيير اسمه.

إن المشكلة الكبرى أن الغرب قد تأكد لديه أن أقـــوى رابطـــة بين المسلمين هى رابطة الدين وصلة العقيدة، وأدركـــوا أن ســـر قوتهم تكمن فى العصبية الدينية، وللغرب مطامع فى بلاد المســـلمين، وله ثأر فى دماء المسلمين، فتوجهت عناية الغرب إلـــى بـــث هـــذه

الأفكار الساقطة بين أبناء الملة الإسلامية وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة وفصم عراهـا لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوهـا كل ممزق، فانهم علموا ــ كما علمنا وعلـم جميـع العقـلاء ــ أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا الإسلام، رابطتـهم فـى دينـهم واعتقادهم الذى هو رمز وحدتهم وروح قوتهم، وصمم الغرب علـى تمزيق هذه الوحدة وقطع هذه الصلات، وكان أحـد مداخلـه وأهـم وسائله فى ذلك هو التنفير من العصبية الدينية، ويتبعـهم فـى ذلـك بعض السذج من المسلمين، جهلا وتقليدا فنقضوا هذه الرابطة الدينيـة ولم يستبدلوا بها رابطة أخرى، لأن الإسلام لا يعرف العصبية القبليـة ولا العصبية الجنسية، لأنها من دعوى الجاهلية التى حاربها الإسـلام وقضى عليها، فأصبح المسلمون بذلك كمن هدم بيتا بدعوى اسـتبداله بآخر، ولما لم يجد هذا الآخر بقى فى العراء فلم يعد بين المسـلمين رابطة الدين قوية، كما كانت من قبل، بينما تناجى غـيرهم بـأوهى الروابط وشد من أزرها، فبات قويا وأصبحنا ضعفاء، هذا أسلوب من الدهاء أجادته أوروبا فى تعاملها مع العالم الإسـلامى، ولـم تعـدم صيدها فى البلاد الإسلامية، فاستعملت الكثير منهم فى بلوغ مآربـها وتحقيق مقاصدها.

إن الإمام محمد عبده يناشد المسلمين جميعا ألا يغـتروا بـهذه الأكاذيب، ويقول : "أيتها الأمة المرحومة، هذه حيـاتكم فاحفظوهـا. ودماؤكم فلا تريقوها.. هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكـم وفيها عزتكم ومنعتكم فلا توهنوها، ولكن عليكم أن تخضعوا لسـطوة

العدل، فالعدل أساس الكون، وبه قوامه ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، ولا يجعلونه منهجا لعلاقتهم مع أنفسهم ومع الآخرين" [1].

هذه لمحة موجزة وسريعة عن فلسفة المشروع التغريبي للتنوير وأبعاده السياسية والاجتماعية، أردنا بها ضبط مفهوم المصطلح " التنوير" ومضمونه التغريبي وموقف رواد الإصلاح الدينى من هذا المشروع ورفضهم له وتحذيرهم منه. وذلك حتى يكون الشباب على بينة من الأمر، وحتى لا تختلط الأوراق فى يد القارئ. وإن كان ذلك شيئا مقصودا من أصحاب المشروع العلمانى.

هذا : وما أريد إلا الإصلاح. وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

---

[1] راجع الكتاب التذكارى عن محمد عبده ـ المجلس الأعلى للثقافة ص ٤٠٠ ٤٠٣.

فهرس